القسم الثالث

عصر الدولة

- ٨ -

المرابطون

«ولهم في قتالهم شدّة وجَلَد ليس لغيرهم، وهم يختارون الموت على الانهزام»

البكري

في القرن الحادي عشر حان الوقت لدولة الصنهاجيين لتقديم نفسها للعالم فيما هو أبعد من الصحراء. كانت المصالح التجارية والإغراءات الحِمائية والخفارية والجبائية تستدعيهم لأدوارٍ كبيرة. فقد وُجِدوا بين دولتين ولم يكن ينقصهم غير تنظيم أمرهم للسيطرة عليهما بدلًا من مجرد البقاء رهنًا لهما. وأكثر من هذا، كانت ثمة حاجات دفينة في اقتصاد الصحراء تدفعه للتمدّد والخروج بحثًا عن اكتساب مصادر جديدة[١]. كان الصنهاجيون الصحراويون يعيشون وضعًا خانقًا؛ إذْ تناقصَت مصادِرهم وجفّت أرضهم فيما وقعوا بين كماشتين من الجنوب والشمال. في الشمال سيطر الزناتيون وأزاحوا نفوذ الصنهاجيين الذين حاولوا وراثة نفوذ الكتاميين، وفي الجنوب تصاعد نفوذ دولة غانا التي فرضت نفسها

(١) إن نقاش الدوافع الفعلية لظهور المرابطين هو نقاش أكاديمي محتد، وبينما يذهب نهيما لفتزيون، مؤرخ الصحراء وبلاد السودان الكبير، إلىٰ القول بالضغوط الاقتصادية، فقد ركّزَت أعمال ماك دوغال أيضًا علىٰ العامل الديمغرافي والمصادر الاقتصادية كتفسير لتدفق المرابطين خارج الصحراء، أما فارياس فقد أعاد الاهتمام بالدوافع الدينية الأصولية المحضة وركز علىٰ الجانب الأيديولوجي خصوصًا إبان نشأة الحركة في رباط وجاج بن زلو لتفسير نمو الحركة مقارنًا بينها وبين نموذج الجهاد الإسلامي في عهد النبي محمد ﷺ.

علىٰ أوداغست. وفي قلب الصحراء كان التشرذم الصنهاجي واقعًا ولم يكن هنالك مهربٌ منه غير الوحدة السياسية وبناء مُلك منظم.

في عام ١٠٣٤ استطاع الصنهاجيون إعادة التوحد السياسي بعد أكثر من قرن من التشرذم والصراعات القبلية. كانت رئاسة الأمير اللمتوني، تارسني أو تارشنة أو تارشت (بحسب الطبعات المختلفة)، رمزَ هذا التوحد، وكان إسلامه -الذي توَّجَه بحجه واحتكاكه بالإسلام السني في الحجاز، حيث يقدم المسلمون من كل صوب- رمزًا آخر لهذا التوحد. وكترجمة لتديّنه العمومي فقد قامت سلطته بغزو بلاد السودان للأسلمة وللجهاد. لقد أدخل تارشنة إلىٰ الصحراء عصرَ التدين السياسي والجهادي بعد قرون من الإسلام الخالي من الحمولات السياسية، حتىٰ عند الخوارج والشيعة الذين مرّوا بالصحراء جنوبًا وشمالًا واستقرّوا بها وماتوا فيها دون أن يحوِّلوا تديُّنَهم إلىٰ قضية حربية أو سياسية ملحوظة. اشترطَ تارشنة الإسلام كحدٍّ أدنىٰ للوئام في الداخل أو الخارج، وقام بالهجوم علىٰ أعدائه عندما لم يستجيبوا لشروطه. وربما لم يكن الجهاد غير أسلمة وأدلجة لنمط حربي كان قائمًا؛ ذلك أن الصراعات بين الصحراء والسودان كانت مشتعلة دومًا في المجال في إطار صراعات المجموعات وتمدُّدِها وبحثها عن المغانم والأسلاب وتتبُّعها للسلطة والتحالفات. هكذا كان الحال منذ هجمات البربر الأوائل ثم الصنهاجيين في عهد تن باروتان، ولكن إدخال العامل الجهادي في هذه الصراعات وربما في الشأن العام كان أمرًا جديدًا مع بداية ثلاثينيات الألفية الميلادية. وعندما سقطَ تارشنة قتيلًا في جهاده في عام ١٠٣٧م انتقلت السلطة إلىٰ صهره، يحيىٰ بن إبراهيم، الذي كان يمثِّلُ وحدة جدالية-لمتونية[1]؛ إذ كان صهرَ الأمير اللمتوني القتيل وكان حفيدًا من جهة الأم لتلاكَين، الأمير اللمتوني

(١) نقول بهذا كفهمٍ لتضارب الروايات حول انتمائه للمتونة أو جدالة، وبينما تميل أغلب المصادر الأساسية إلىٰ اعتباره لمتونيًا فإن ابن أبي زرع الذي خصّص صفحاتٍ أكثر من غيره لتاريخ الصحراء في هذه المرحلة يعتبره جداليًا، وكذلك الصيرفي في شذراته. ربما كان جداليًا ولكن مصاهرته للمتونة وتداخله معهم جعل الرواة يعتقدونه لمتونيًا، ومن المرجح كثيرًا أن يكون تداخله مع لمتونة تفسيرًا لتأمُّرِه علىٰ الاتحاد الصنهاجي الذي كانت لمتونة نواته الأساسية. أما لشاتلييه فيحلل أنه كان يمثل انتقال الحكم من لمتونة إلىٰ جدالة.

الذي حكم الاتحاد، وربما أسّسه، في القرن الثامن.

كانت عدة عوامل قد ساهمت في التحوُّل إلىٰ إسلام جهادي؛ فالمجتمع الصنهاجي كان مجتمع غزوات أصلًا ولعلّ التحوّل الجديد لم يكن غير أدلجة وترجمة الغزوات القديمة إلىٰ جهاد أو تسويغها به، ولكن لا شيء يدعونا لإغفال البعد الإيماني؛ فالمجموعات الدينية الأصولية ضاقت ذرعًا بتشعّب منابع الإسلام في المنطقة وأرادت إرساء صورة أرثوذوكسية واحدة للدين. وإضافة إلىٰ هذا وما يأتي به من منافِع ومعانٍ وقتية، فقد كان التوحد هو فرصتها الأوضح للتحول إلىٰ قوة قادرة علىٰ تحقيق الكسب ورأب الصدع في حياة الصحراء الفقيرة. وإذا كان هذا التوحّد قد أصبح منذ ثلاثينيات القرن حركةً سياسية مع تارشنة، فإن الطموح بالفتوحات البعيدة لن يصبح ملموسًا وناجحًا إلا مع عهد المرابطين.

كان يحيىٰ بن إبراهيم، وريث تارشنة، شخصًا آخر متدينًا. وقد خمّنَ مُحلّلون لاحقون أن تأمُّرَه يعني انتقالَ الملك في الصحراء من لمتونة إلىٰ جدالة[1]. وفي عام ١٠٣٩ قام هذا بالحج كما فعل سلفه، وهنالك في الأراضي المُقدّسة، التي كانت في ذلك الحين تحت سلطة العباسيين، وجد ابن إبراهيم نمطًا مختلفًا من الإسلام. كان إسلام الصحراء إلىٰ حدِّ الآن إسلامًا اسميًا، كما دأبت المصادر علىٰ وصفه، ولكن الحقيقة الأبعد هي أنه كان مختلفًا ثقافيًا (وسيظلّ). وكانت عادات صنهاجة المتناقِضة مع كثيرٍ من التطبيقات السنية للإسلام شائعة دون كوابح، وأكثر من هذا فإن حرية الصحراء المعروفة جعلت معاقرة الخمر وتعدُّد الزوجات وسفاح القربىٰ تمضي دون كبحٍ، بل ربما تكرّست تلك العادات بفعل الحركة التجارية المزدهرة. ولعلّ ابن إبراهيم شاهدَ في حجّه نموذجًا مختلفًا عن النموذج الصحراوي وأراد فرض الأخلاق الإسلامية «الصحيحة»، المقصود بها السنيّة. ولقد لازمته هذه الرغبة في طريق العودة، بحيث إنه عرض الأمر علىٰ فقيه مالكي بتونس هو أبو عمران الفاسي (ت ١٠٣٩)[2]، وذلك في لقائه به في

---

(1) Alfred Le Chatelier. *L'Islam dans L'Afrique Occidentale*. Paris: G. Steinheil, Editeur, 1899, p. 42.

(٢) يعتقد صاحب الحلل الموشية أن هذا حدث في عام ٤٤٠ هـ أي عام ١٠٤٩م.

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، لمؤلف أندلسي مجهول في القرن الثامن الهجري، تحقيق الدكتور سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة، الدار البيضاء، المغرب: دار الرشاد الحديثة، ١٩٧٩، ص ١٩.

القيروان عندما حَضَرَ درسًا من دروسه[1].

❁ ❁ ❁

كان أبو عمران الفاسي الذي كانت مباحثته مع ابن إبراهيم من آخر المشاهد الكبيرة في حياته، فقيهًا ومرجعًا مالكيًا ليس فقط في القيروان، وإنّما في عموم إفريقية والمغرب. بل إن صعود المالكية[2] في هذه المنطقة كان متلازمًا مع مسيرته العلمية والنضالية. وسيكون للمالكية الشأن الأساسي في بناء النسخة الدينية في الصحراء علىٰ مدىٰ القرون اللاحقة. كانت المالكية مذهبًا فكريًا أسّسه الإمام مالك بن أنس (٧١١-٧٩٥) في المدينة المنورة في القرن الثامن، وقد بُني علىٰ أسس محافظة وثقافية، وإن كانت غنيّة بالنقل، من تراث المدينة الذي خلّفه الرسول ﷺ وصحابته، وسيُعرَفُ بـ**عمل أهل المدينة**. وفي إفريقية (تونس) التي دخلتها المالكية في القرن الثامن تم تطوير المذهب وتحويله إلىٰ حركة ثقافية وهوية طائفية. وكان الإقبال الجماهيري علىٰ المالكية جزءًا من صعودها؛ إذ كانت -من حيث هي أيديولوجيا الطبقة المسحوقة ومن المُجدِّدين الفُقهاء- هي التي تصدّت للمكوس والمغارم التي فرضها الحكام، وهو ما جعلها تلقىٰ صدىٰ في نفوس العامة والتجار. أما المبدأ الأصولي البراغماتي المالكي، القاضي بـ**المصلحة المرسلة** و**الاستحسان** و**الاستصلاح** فكان مستحسنًا هو الآخر من قبلِهم.

كان الوجه الآخر المريح للمالكية، بالنسبة إلىٰ الأمير المرابطي، هو حرارتها الأيديولوجية ونقاءها الأصولي، البعيد عن المداهنة التي مثّلَها فقهاء البلاط الأحناف في القيروان. في القرن العاشر كانت المالكية رأسَ الحربة في رفض الطوائف الإسلامية غير السنية، التي كان حضورها قويًا في القيروان، والتي بقيت سنيّة في عالم من السيطرة الفاطمية الشيعية (في الوقت نفسه الذي كسب فيه المدّ الشيعي بروزًا قويًا بفعل الضمان الأمني الذي أتاحه وجود البويهيين في قلب

(١) نفسه، ص ١٩-٢٠.

(٢) دخلت المالكية إفريقية في القرن الثامن بعد أمد وجيز من إنشائها، ولكن صعودها سوف ينتظر وقتًا بعد ذلك.

الخلافة العباسية، ثم ظهور أنظمة سياسية اجتماعية شيعية فيما بعد ذلك). ازدادت المالكية في المغرب الأقصىٰ وفي إفريقية بالقادمين من المشرق الرافضين للمد الشيعي فيه، فأتوا إلىٰ إفريقية وهم يحملون عداءهم الدفين لكل ما ليس سنيًا[١]. ونَشَطَ الفقهاء المالكيون في القيروان في هذا السياق، بل وحاولوا السيطرة السياسية في المغرب الأقصىٰ كما تدلُّ مثلًا تجربة محمد بن الفتح، الأمير المدراري، الذي كان مالكيًا وقد سيطر علىٰ سجلماسة لبعض الوقت قبل أن ينهزم ويُقتل في عام ٩٥٨م علىٰ يد القائد الفاطمي الشهير، جوهر الصقلي (٨٢٨-٩٩٢م)[٢].

بقيت المالكية قوية في الرباطات العلمية وفي شرق المغرب العربي، تونس، فعندما وصل المالكيون للقيروان كان وصولهم متأخرًا عن الفقهاء الأحناف الذين كوّنوا طبقة رجال الدين بالنسبة إلىٰ الأغالبة، قادة المرحلة الثانية من تعريب المغرب العربي وهزيمة بربره. وربما كانت قوة الأحناف هذه هي مكمن ضعفهم، فقد جعلهم قربهم من مراكز النفوذ جزءًا من المصالح القائمة؛ مما جعل الفقهاء المالكيين القادمين حديثًا والصاعدين طبقيًا يتصدّرون معارضَتَهم؛ وهي المعارضة التي أكسبتهم احترامَ العامة وتعاطفهم مع تقواهم ومع فهمهم الحرفي للإسلام وعدم مداهنتهم في مبادئهم[٣]. في هذه الفترة قاد المالكيون معارضة شديدة للنفوذ الفاطمي في إفريقية، ورفضوا الصلاة في المساجد الفاطمية، علىٰ عكس الأحناف.

كان أبو عمران هذا قادمًا من فاس، حيث نشأ ودرّس لبعض الوقت ولكنه استقرّ بالقيروان بعد اضطهاد سياسي[٤]، وانخرط في المدِّ المالكي وكان من العلماء الذين ضغطوا علىٰ أمير بني زيري، المعز بن باديس (١٠٠٨- ١٠٦٢)،

---

(1) I. Hrebk. and J. Davisse. The Almoravids, 342.

(٢) البكري، ص ١٥١.

(3) Nehemia Levtzion. The Sahara and the Sudan form the Arab Conquest of the Maghrib to the rise of the Almoravids. *In* J. D. Fage and Ronald Oliver, Eds. *The Cambridge History of Africa: Volume 2: From c.500 BC to AD 1050.* Cambridge: Cambridge University Press, 1979, 656.

(٤) إسماعيل بن الأحمر، بيوتات فاس الكبرىٰ، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، ١٩٧٢، ص ٤٤-٤٥.

وطالبوه بالتخلي عن الولاء للفاطميين. وفي هذا العام كانت جهوده قد بدأت تؤتي أكلها عندما بدأ بنو زيري أولىٰ محاولات التخلُّص من الفاطميين[١].

❁ ❁ ❁

أُعجِب الأمير الصنهاجي يحيىٰ بن إبراهيم بالحركة المالكية، وطلب من عَلَمها إنفاذ شخص معه ليفقِّهَ الصحراء في الدين. في الصحراء، كما في المغرب، ستتحوَّل الحركة الفقهية الصغيرة إلىٰ حركة دينية شمولية نضالية الطابع وستصبح -بتحوّلاتها التاريخية العديدة- مُكونًا أساسيًا من المكوِّنات الفكرية في المنطقة الممتدّة من الأندلس إلىٰ السودان. في القرن الحادي عشر كان لقاء الصنهاجي والفاسي أساس هذه العملية. أراد الصنهاجي نظامًا تكون فيه السلطة للفقهاء االمالكيين وأراد مرشدًا مالكيًا. وعندما لم يجد الفاسي مستعدًا في زاويته، أرسلَ تلميذًا له في فاس هو وجّاج بن زلوىٰ (ت. ح. ١٠٥٤)[٢]. كان هذا رئيس رباط ديني منتميًا إلىٰ قبيلة لمطة، القريبة من الصنهاجيين، التي كانت في هذه الفترة قد بدأت تشهد إقبالًا علىٰ التعلّم الديني وبدأت تشاهَدُ فيها الرباطات الدينية بما فيها رباط وجاج نفسه. وكان هذا الرباط نفسه مُفسِّرًا للعلاقة بين المغرب وإفريقية؛ لأن وجّاجًا سافر في مقتبل عمره إلىٰ القيروان ودرَسَ فيها علىٰ أبي عمران الفاسي. وكانت الرباطات منتشرة في القيروان في هذه الفترة، وعند عودته للسوس أسّس نموذجًا منها هو **دار المرابطين** لتلامذة العلم وتجويد القرآن في أغلو، قرب تيزنيت الحالية (جنوب أغادير، المغرب)، وكانت له حركة شعبية بين المصامدة، الذين كان يلعب فيهم دور الولي ومقدِّم البركات للناس الذين كانوا يأتونه للدعاء والاستسقاء[٣]. عندما وصلت رسالة الفاسي إلىٰ وجّاج أرسل تلميذه النابغة، عبد الله بن ياسين، مع الأمير الصنهاجي إلىٰ الصحراء. سيكون

---

(1) Nehemia Levtzion. The Sahara and the Sudan, 657.

(٢) كان أبو عمران الفاسي قد كون عدة تلاميذ في المنطقة أتوه للدراسة عليه في فاس، ثم عادو إلىٰ المناطق البربرية في أغمات، كعبد العزيز التونسي. انظر: أبو يعقوب يوسف بن يحيىٰ التادلي، كتاب التشوف إلىٰ رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، المعروف بابن الزيات. تحقيق أحمد توفيق. كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، ١٩٨٤، ص ٩٢.

(٣) التادلي، ص ٨٩-٩٠.

ابن ياسين هو سائس حركة المرابطين ورائدها.

❁ ❁ ❁

في شمال الصحراء وجنوب المغرب كان تصاعد المالكية الأيديولوجي والثقافي بين مجموعات البربر الصغيرة مشهودًا، وكانت فيها نواة الحركة الراغبة في حسم الأمر ضد الإباضيين والشيعة الذين كانوا أوصياء علىٰ المنطقة. وبالنسبة إلىٰ الوضعية السياسية العامة في المجال، فقد ولد نظام في المنطقة صار بموجبه الزناتيون سُنِّيين في مواجهة قطب راغب في تحجيم المد السني الأموي الأندلسي الذي تقوده الدولة الفاطمية. أما الصنهاجيون فصاروا قبل هذا حلفاء الفاطميين الذين أوكلوا إليهم مهمة الغرب الإفريقي بعد تحولهم إلىٰ المشرق[١]. وقد بدأت هذه «الحرب الباردة»، التي كان وقودها صراع الزناتيين والصنهاجيين، تحدث علىٰ مستوىٰ القوافل العابرة. ووصل مداها إلىٰ أوداغست التي نقل البكري تعادي طبقتها الغنية. ولكن مع مطلع القرن الحادي عشر كان الصدع قد بدأ يضرب في هذه الاستقطابات. كان كثير من المجموعات الصنهاجية قد بدأ يميل إلىٰ الجناح السني، وإلىٰ الحركة المالكية، ولم يكن هذا الميل غريبًا علىٰ رباط وجاج بن زلو فقد تلقّىٰ قبل هذا دعوة من زعيم جدالي صنهاجي هو جوهر بن سكام أو بن سكن لإيفاد مُدرِّسين من رباطه لتعليم الصحراويين[٢]. في هذه الأجواء المحتقنة غادر عبد الله بن ياسين إلىٰ الصحراء.

لم يكن ابن ياسين ينتمي لبربر الصحراء من جهة أبيه، وإن انتمىٰ للقبيلة العريضة الصنهاجية نفسها؛ إذْ كان جزوليًا[٣]، ولكنه انتمىٰ لها من جهة أمِّه، تين

(١) انظر: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي أكرم ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ليدن، ١٨٧٩، ج ٩ ص ٣٨٨.

(٢) القاضي عياض بن موسىٰ بن عياض السبتي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق سعيد أحمد أعراب، المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٨٢، ج ٨ ص ٨١-٨٢.

(٣) أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع، الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ دولة فاس، أوبسالة: دار الطباعة المدرسية، ١٨٢٢، ص ٧٨.

يزامارِنْ، التي كانت من الصنهاجيين الصحراويين[١]. وربما كان حسبه ونسبه من العوامل المهمة في التواصل مع بربر الصحراء، وربما في إيفادِه إليهم، دون أن ينقص هذا بالضرورة من قيمته الأساسية بصفتِه فقيهًا ممارسًا ومنتميًا للرباط الصحراوي المالكي[٢]، (مع أن بعضَ معاصريه، كالبكري مثلًا، أو المتأخرين، كالناصري، لم يرفع كثيرًا من تلك القيمة).

في الصحراء كان الصنهاجيون -كما قلنا- في فترة أفول وتراجع رغم عملية التوحيد التي قام بها تارشنة. في الجنوب كانت القوة العسكرية والتجارية لغانا قد قلبت موازين القوىٰ وجعلت غانا تبسط نفوذها، وإن ليس سيطرتها، علىٰ أوداغست، أما في الشمال فقد بدأ الزناتيون توسيع نفوذهم وقهر الصنهاجيين ودفعهم إلىٰ الجنوب. ولقد بدأ هذا مع بداية القرن الحادي عشر عندما استطاعت جموعهم إقصاء لمطة ومسوفة من الجنوب المغربي ومن المسارح الغنية في وادي درعة وواد نون، وذلك بعد وصول القبائل الزناتية التي كانت تقطن في الشمال كبني يفرن ومقراوة إلىٰ الجنوب في سلا وتادلة[٣]. أما في داخل الصحراء فلقد ضعفت تجارة المسوفيين من خلال ظهور مناجم الملح الجديدة في آوليل، التي كانت في يد الجداليين. ثم بدأ الزناتيون في السيطرة التجارية علىٰ أوداغست من خلال جاليتِهم فيها، والتي يعتقِدُ بعضُ الدارسين أنها تمكّنت منها ابتداءً من العام ٩٧٠م فأقصت الصنهاجين لاحقًا من التجارة ومن الانتفاع بها[٤].

ولكن العامل الاقتصادي الأهم الذي حفّز قوة الصنهاجيين الوشيكة، كان

---

(١) كانت من منطقة تاماماناوت جنوب الصحراء، قرب غانا بحسب البكري (ص ١٦٥).

(٢) يركز نهيما لفتزيون كثيرًا علىٰ هذا المد المالكي، ذاهبًا إلىٰ أن ابن ياسين كان يشكل امتدادًا للرباط المالكي في جنوب المغرب التابع لوجاج، وأن رباط وجاج نفسه كان تابعًا للمالكية في تونس.

Nehemia Levtzion. 'Abdellah Ibn Yasin and the Almoravids in *Studies in West African History: The Cultivators of Islam, vol 1, edt; John Ralph Wilis. London: Frank Cass, 1978, p-p78-112.*

(٣) في القرن العاشر كانت قبيلة مغراوة تستوطن في الشمال المغربي، حيث حاربت الأمويين طويلًا إلىٰ عام ١٠٠٠، ولاحقًا نزلت الجنوب حيث سيطرت علىٰ سجلماسة وأغمات وتامدلت

(J. I. Hrebk and J. Devisse. The Almoravids, 337.)

التي كانت مسارحها مهمة جدًا للاقتصاد الصنهاجي الرعوي.

(٤) نفسه، ص ٣٤١.

القحط الذي دمّرَ الحياة الرعوية الصحراوية فجعل الصحراء تضيق عليهم، كما نقل ذلك المؤرِّخ ابن الأثير[١]. ولقد ذهب دارسون غربيون إلىٰ تأويله بأنه الكثافة السكانية للصنهاجيين، التي جعلت الموارد الصحراوية، علاوة علىٰ تراجعها، تقصُر عن حلِّ مشاكل المعيشة. لقد ذكر ابن الأثير هذا العامل وأكّدَ عليه دارسون آخرون في تحليلاتهم[٢]. وهو العامل الذي أشار إليه مؤلف **التشوف**، وصاحب **الاستبصار** أيضًا[٣]. وتكمن أهمية العامل الاقتصادي، وخصوصًا في ارتباطاته بالاقتصاد الرعوي، في كون المرابطين هاجموا الشمال أولًا لتأمين المسارح قبل أن يكرّوا علىٰ أوداغست في الجنوب.

كان يمكن حلّ مشاكل الصنهاجية ببناء دولة قوية متماسكة مثل تماسك الزناتيين. وهكذا انطلق عبد الله بن ياسين في مهمة تربوية وتعليمية أساسًا، ولكن طموحات الاستفادة السياسية من هذا لم تغب عن خاطِره. فقبل أن يعرف الصحراء كان سؤال توحيد قبائلها في شأن سياسي مطروحًا في ذهنه، فعندما أنهىٰ دراسته في الأندلس وقفل راجعًا إلىٰ صحراء المغرب مرَّ ببلاد مصمودة التي لاحظ فيها كيف كانت القبائل المصمودية تتقاتل فيما بينها قتالًا دائمًا تعيش فيه علىٰ الغصب والسلب والنهب. وعندما تساءل مندهشًا عن الإيمان بالله وبرسوله وبالاستناد إلىٰ حكم رجل واحد، فإن الشيخ المصمودي الذي قابله أجابه بأن الزناتيين يؤمنون بالله وبرسوله ولكنهم لا يقبلون أن يعلُوَ عليهم من ليس من قبيلهم[٤]. وكان تفكير ابن ياسين واضحًا في هذه المرحلة المبكرة، ومفاده أن الدين وحده يمكن أن يلمَّ شمل القبائل المتناحرة.

رغم أن ابن ياسين أتىٰ للصحراء للتدريس، إلا أن البعض لم يعترِف بمستواه العلمي، ولم يرَ فيه أكثر من طالب[٥]، رغم أنه دَرَّسَ في رباط[٦] وجاج بن

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، طبعة ليدن، ١٨٧٩، ج ٩ ص ٤٢٧.

(2) Nehemia Levtzion, "The Sahara and the Sudan," 63.

(٣) الاستبصار، ٦٧.

(٤) ابن عذاري، ج ٤ ص ٩.

(٥) الناصري، الاستقصا، ج ٢ ص ٧.

(٦) لا يذكر صاحب الحلل الموشية إلا أنه كان من طلبة وجاج (وكاك) بن زلو (ص ٢٠)، ولكن إنفاذه يعني بلوغه مستوىٰ التدريس حتمًا.

زالوىٰ. ولكن قيمته الأساسية -تمامًا كناصر الدين الذي سيحاول اقتفاء آثاره بعد ستة قرون- كانت في قدرته التنظيمية والقيادية. كان شابًا متعلِّمًا وقد دَرّسَ لسبع سنوات في الأندلس في إحدىٰ ممالك الطوائف[١]. ومهما يكن من أمره، فقد عمِلَ ابتداءً من العام ١٠٣٩ إلىٰ العام ١٠٥٣ في التدريس في الصحراء، بين الجداليين، وليس اللمتونيين، رغم أن القبيلَيْنِ استقبلاه بحفاوة[٢]. وقد قضىٰ بينهم وقتًا كافيًا أصبح فيه جزءًا من الحياة الصحراوية. وسرعان ما ارتفَعَ مقامه من معلِّمٍ إلىٰ قاضٍ، فلم يكتفِ بمجرد تدريس الفقه والقرآن بل قام مدفوعًا بحسِّه المالكيِ النضالي[٣] بتطبيق العلوم بدلًا من مجرد التعريف بها، فشرع في إقامة الحدود معلنًا عن عصر جديد من السلطة في الصحراء.

كان تطبيق الحدود التجلي الأبرز للمالكية النضالية، وكان الفقهاء المالكيون أنفسهم مُمثِّلين لمطالب تطبيق الشريعة، بل وتطبيقِها بالفعل أحيانًا. فقد قام تلميذ الإمام مالك الأكبر سحنون (٧٧٦-٨٥٦) في إفريقية بتطبيق الحدود في المسجد الكبير. وفي الصحراء تتبع ابن ياسين هذا، فقام بفرض الصلاة في الجماعة وتحفيظ **الموطأ**، وشرعَ في قتل الكلاب، وألغىٰ المغارم، ولم يترك من المكوس غير تلك الشرعية منها (الصدقة والعشر)، وأمر بتقسيم الغنائم علىٰ أساس التقسيم الإسلامي وليس علىٰ أساس النظام القبلي القائم[٤].

كما يقرّر فارياس، فإن عبد الله بن ياسين كان يحاكي النموذج النبوي في إرساء مجتمع جديد. وكان أساس هذه العملية بناء قِيمٍ جديدة، فبدأ في نشر مُثُل التقشف والزهد التي تلقّاها من البعد الصوفي لرباط وجاج[٥]، فنبذَ حياة البذخ ونهجَ منها ما لم يكن مألوفًا في التقاليد الصحراوية، فمنع علىٰ نفسه اللحوم

---

(١) ابن عذاري، ج ٤ ص ١٠؛ وصاحب **الحلل الموشية**، ص ٢٠.

(٢) ابن أبي زرع، ص ٧٨.

(٣) المالكية النضالية أو Militant Malikism هو مصطلح اعتمده نهيما لفتزيون لوصف المالكية التطبيقية الساعية لبناء مجتمع إسلامي قانونًا وقيمًا.

(٤) البكري، ص ١٦٦.

(٥) الذي يمكن استشفافه من كتاب **التشوف إلىٰ رجال التصوف** وكذلك **بيوتات فاس الكبرىٰ**.

والألبان وهما أساس حياة الصحراء[١]. وربما كان الأمر يتعلّق بشكٍّ منه في حِلية لحوم سكان الصحراء وألبانهم[٢]؛ لأنه كان يأكل لحوم الصيد والطرائد[٣]. وأمرَ بالتوبة التي عنت التخلُّص من الماضي ونية عدم العودة إليه. بالنسبة إلىٰ المتعاطفين كانت هذه التقاليد وغيرها، كفرض الصلوات في الجماعة والضرب عليها، تعني شدة وتحمسًا للإسلام؛ ولكنها بالنسبة إلىٰ البكري كانت تعني شذوذًا وجهلًا[٤].

والواقع أن انطباع البكري كان أيضًا سائدًا في أوساط الصنهاجيين في الصحراء[٥]، إلاّ أن ابن ياسين كان يتمتّع بالشرعية الروحية والقوة السياسية لتنفيذ مخطّطِه، حيث سادَ اعتقاد بولايته وكراماته[٦]. ومن الناحية السياسية كان يتمتّع أيضًا بحماية الأمير له. وعندما بدأ أمره يعلو شيئًا فشيئًا، قام بفرض العقوبات وبدأ في التفكير في بناء سلطة مركزية تابعة له. كان نظام الرباطات مصدر قوته؛ ذلك أن تلك الصروح الدينية كانت مواطن لتخريج الحركات السياسية الدينية، وكانت مشاريع اجتماعية-سياسية بديلة. وهكذا وجد تحت إمرته سلطة سياسية ربّما بالغ في الإيمان بها عندما لم يُلْقِ بالًا للتابوهات الاجتماعية في مجتمع البربر؛ فعاقب المتأخِّرين عن الصلاة بالجلد، كما حرَّم معاقرة الخمر، وحَجَّم الأسرة الصنهاجية المتكوِّنة من الزيجات المتعدِّدة، التي تزيد علىٰ الأربع. وعندئذ وصل الأمر حدًا لا يطاق لدىٰ الجداليين فثاروا عليه، وهدموا منزله ونهبوا أثاثه، وطردوه في عام ١٠٥٣م، وذلك بتنسيق من الفقيه الجوهر بن سكَم (أو بن ساكوم)، كما يُبلِغنا البكري:

> . . . فعزلوه عن الرأي والمشورة وقبضوا منه بيتَ مالهم وطردوه وانتهبوا ما كان فيها من أثاث. . .فخرج مستخفيًا من أرض صنهاجة إلىٰ أن

(١) حسب ابن حوقل، والبكري، ص ١٦٥.

(٢) حسب ما يقرّره البكري، ص ١٦٥.

(٣) ابن أبي زرع، ص ٨٣.

(٤) البكري، ص ١٦٩-١٧٠.

(٥) نفسه، ص ١٧٠. عندما يتحدث عن «ما يحفظ من جهل ابن ياسين».

(٦) ابن أبي زرع، ص ٨٣-٨٤.

أتىٰ وجّاج بن زلو، فقيه ملكوس، فعاتبهم وجاج علىٰ ماكان منهم إلىٰ عبد الله، وأعلمهم أن من خالف أمر عبد الله فقد فارق الجماعة، وأن دمه هدر، وأمر عبد الله بالرجوع إليهم فرجع وقتل الذين قاموا عليه، وقتل خلقًا كثيرًا ممن استوجب القتل عنده بحرابة أو فسق[١].

ويدعم هذه الرواية ما أشار إليه كل من ابن الأثير والقاضي عياض عن عداوة مستأصلة بين عبد الله بن ياسين وفقيه جدالة وأحد أعيانها الكبار، الجوهر بن ساكوم[٢]. وحسب هذه الرواية، فإن ابن ساكوم كان صاحب مشروع الذهاب إلىٰ أبي عمران الفاسي، وأنه هو من أتىٰ أصلًا بعبد الله بن ياسين[٣]، غير أن ظهور دعوة الأخير في لمتونة بدلًا من جدالة أثارت حسده فحاول التمرّد عليه[٤]. بينما تذهب رواية ابن أبي زرع إلىٰ سيناريو مغاير، وهو أن جدالة هجروه وأعرضوا عنه؛ لذا قرّر المغادرة إلىٰ بلاد السودان، ثم عدل عن الأمر إلىٰ قرار الانعزال في جزيرة خاصة للعبادات مع الأمير يحيىٰ بن إبراهيم وفئة معه[٥].

ربما لم تتفاقم المشاكل وتقوم الثورة علىٰ ابن ياسين، إلا عند وفاة يحيىٰ بن إبراهيم الذي كان غطاءً سياسيًا له. فلم يقبل النبلاء الجداليون أن يقودهم غريب، إضافة إلىٰ وجود خلافات ذات طابع نظري مَذْهبي معه؛ فقد رفض زعماء جدالة -الذين يعدِّدُ ابن أبي زرع فيهم جوهر بن ساكوم- توجه ابن ياسين، فتحالفوا مع الزعماء الجداليين أمثال إيار وإن تاكو، الذين امتعضوا من نوايا ابن ياسين في المساواة ومن نظام الشريعة عنده، واستغلّوا هزيمته السياسية بعد دعمه لأحد المطالبين بالإمارة لخلافة يحيىٰ بن إبراهيم فثاروا عليه.

---

(١) البكري، ص ١٦٥-١٦٦.

(٢) حسب تحليل نوريس، فإنه لا وجود لشخصية يحيىٰ بن إبراهيم؛ وإنما هي نفسها شخصية الجوهر بن ساكوم الجدالي، واسم يحيىٰ بن ابراهيم ليس إلا غلطًا تاريخيًا.

H. T. Norris, "New Evidence on the Life of Abdullah ibn Yasin and the origin of the Almoravid Movement," Journal of African History, 12(1971): 255-268.

(٣) القاضي عياض السبتي، ج٨ ص ٨١.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩ ص ٤٢٥-٤٢٦.

(٥) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٧٧-٧٨.

كان الوقت قد تأخّرَ كثيرًا علىٰ هذه الثورة، فابن ياسين قد أصبح جزءًا من الصحراء كما أن مشروعه أصبح متحقّقًا وله أتباع ومريدون. وربما حقّق كثيرًا من العلاقات بفعل زيجاته المتعددة، فكان «يتزوّج في كلِّ شهر عددًا من النساء ويطلقهنّ. ولا يسمع بامرأة جميلة إلا خطبها»[١]. وربما سمح له هذا بالتغلغل في المجتمع الصحراوي. صحيح أنه انهزم في هذه الجولة وعاد إلىٰ أستاذه، وجاج بن زلو، بجنوب المغرب، الذي غضب من تلميذه وخاصمه في شأن سفك الدماء، وقد ردَّ ابن ياسين بأنه أُرسل إلىٰ أمة من الجهلاء وعدّد جهل هذه الأمة وقال إنه لم يتعدّ شرع الله فيها[٢]. عندئذ تكفّل العالم اللمطي، الذي يبدو أنه كان صاحب نفوذ علىٰ زعماء الصحراء، بالتفاهم مع اللمتونيين لاستقبال ابن ياسين وإعادة دعوته وأمرِه، خصوصًا بعد أن صارت الإمارة فيهم وفي أميرهم يحيىٰ بن إبراهيم اللمتوني.

بدأ نفوذ ابن ياسين يصعد تدريجيًا بسيناريوهات مختلفة تحيل كلّها إلىٰ تنامي زعامته: نَجَحَ في القضاء علىٰ محاولات التمرّد الجدالي، وتمكّن من تطبيق حُكمِ الإعدام في منافسه، الجوهر بن سكم[٣]. وبدأ في سحب البساط من تحت يحيىٰ بن إبراهيم، مطبِّقًا عليه الحدود[٤]؛ لتأكيد رمزية سلطته،كما بدأ ينظم غزوات تأديبية علىٰ قبائل الصحراء التي لم تدخل في طوعه[٥]. وفرض نفوذه حتىٰ علىٰ لمطة، الواقعة في الشمال الصحراوي، التي أخذ منها ثلث الأموال[٦]. ثم علىٰ بني وارث، الساكنين جنوبًا قرب غانا، وحتىٰ علىٰ جدالة المقيمة قرب الساحل[٧]. من الواضح أنه عاد منتصرًا.

كان دعم اللمتونيين لمشروع ابن ياسين الراديكالي خطوة مهمة بالنسبة إلىٰ

---

(١) ابن أبي زرع، ص ٨٣. وأيضًا يتحدث البكري عن الشيء نفسه، ص ١٦٩.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج ٢٤ ص ١٤٢.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٩ ص ٤٢٦.

(٤) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٨٠-٨١.

(٥) نفسه، ص ٧٩-٨٠.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٤ ص ١٠.

(٧) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٤ ص ١١.

الطرفين، فهي جعلت إمكانية دولة مرابطية أمرًا حقيقيًا، وجعلت اللمتونيين نواة هذه الحركة. ويبدو أن القبول بهذا جاء في إطار التنافس الجدالي اللمتوني، فقبل اللمتونيون بالشرعية الراديكالية الدينية وذلك دفعًا لمنافسة جدالة فتحكّموا في الاتحاد ونجحوا في جعل ابن ياسن واجهة لهم. وهكذا قام أشياخهم كيحيىٰ بن عمر وأخيه أبي بكر بن عمر (أو ابن عامر بحسب التقاليد الصحراوية) بالبزوغ في النظام السياسي الناشئ، وتقاسما العمل فيه مع ابن ياسين: فبينما تركا له إدارة الشأن الديني ورسم معالم المجتمع الصنهاجي وتحديد خطه المذهبي والسياسي، فإنهما استلما القيادة العسكرية وتسيير الذراع الضاربة للحركة. وربما تطوّر هذا النهج لفترة إلىٰ نظام سياسي.

❁ ❁ ❁

نتوقف هنا قليلًا عند الروايات البديلة، فهي تنير جوانب من حياة الصحراء في وقت صعود المرابطين. فلم يكن تأسيس دولة مرابطية صحراوية أمرًا بسيطًا. ومن الواضح أن جذوره تعود لعقودٍ طويلة قبل ابن ياسين، ولم يتمخّض تلقائيًا من المشروع التربوي له. بل إن هذا المشروع لاقىٰ مقاومة من قبل سكان الصحراء الذين ربّما اعتادوا اللاسلطوية وعدم التحكم في تصرفاتهم وخياراتهم من قبل سلطة مركزية. وتبدو هذه المقاومة واضحة في رواية ابن أبي زرع وابن الأثير. فبرأيهما أن السكان لم يستسيغوا النظام السلطوي الذي يعاقب السبي والغارات بالقتل وجلد الزناة أو رجمهم. ورغم تقبُّل الجداليين مبدئيًا لإمامة تقيم الصلاة والزكاة، إلا أنهم عبّروا بشكل واضح عن رفضهم للمشروع السلطوي والقانوني للفقيه الجزولي ورفيقه الجدالي وصرفاهما عن بلدهما. وقد عبّرَ زعماء جدالة عن الأمر صراحة لابن ياسين: «أما ما ذكرتَه من الصلاة والزكاة فذلك قريب، وأما قولُكَ: من قتل يقتل ومن سرق يقطع ومن زنا يجلد، فأمر لا نلتزمه ولا ندخل تحته. اذهَبْ إلىٰ غيرنا». بل ونجمت لاحقًا حالة من العدائية والمواجهات بين مشروع ابن ياسين والمشروع الصحراوي[1].

وفي إحدىٰ الروايات أن هذا الرفض أسفر عن جولة أولىٰ من انتصار الرفض

(١) النويري، ج ٢٤ ص ١٤٠؛ وأيضًا: ابن الأثير، الكامل، ج ٩ ص ٤٢٤-٤٢٦.

الصحراوي لمشروع دولة الشريعة. وتملّكَ الإحباط ابن ياسين وشرع في التفكير في المغادرة إلىٰ بلاد السودان التي كانت قبسات من دعوته قد بدأت تصل إليها، كما أن وضعية التأسلم فيها صارت مقبولة بدرجة ما، كما رأينا سابقًا. وهنا أتىٰ دور يحيىٰ بن إبراهيم لينقذ الحظ التاريخي للصحراء، فقرّر الخروج مع الداعية الجزولي إلىٰ رباط ناءٍ وصفه بأنه «جزيرة في البحر، إذا حَسَرَ البحر دخلنا إليها أقدامنا، وإذا ملا دخلنا في الزوارق، وفيها الحلال المحض الذي لا تشك فيه من الشجر البرية وصيد البر والبحر، من أصناف الطير والوحش والحوت». وهو المقترح الذي استحسنه القائد الداعية وانتهجه[1].

ولكن الحياة في الجزيرة المزعومة لم تكن انتجاعية كما أشار إليها وصف الأمير الجدالي. فهنالك عكفت الجماعة علىٰ تربية دينية قاسية بالنسبة إلىٰ حياة الصحراء الخالية من الانضباط، ولولا استقلال ابن ياسين السياسي في الجزيرة لما قدر علىٰ تأسيس مجتمع من المتدينين ذوي الخصائص الجُندية المتماسكة التي ستغدو نواة حركة المرابطين وقوتها. ورغم أن البداية في الجزيرة لم تكن بغير ثلة أشخاص تم تحديدهم بالسبعة، إلا أنهم صاروا في ظرف وقت وجيز جماعة عندما توافدت إليهم أفواج المؤمنين المهاجرين من كل حَدْبٍ وصَوْب.

❁ ❁ ❁

وعلىٰ العموم، فقد كانت تجربة رباط الصحراء تجربة وحدة سياسية متأسِّسة غالبًا من «أشراف صنهاجة». ومع نضج تماسكهم الإيماني بدأ عبد الله بن ياسين في تنميتِهِم باتجاه هدفه الاستراتيجي، وهو السيطرة علىٰ الصحراء وبسط الدين فيها بالقوة وفرض الانضباط علىٰ أنصاره بإحقاق العقوبات علىٰ كل مخالفة دينية فَسَنّ جلدَ من فاتته صلاة الجمعة بعشرين جلدة، وخمس جلدات لمن فاتته

---

(١) ابن أبي زرع، ص ٧٩.

هنالك ميل عام عند المؤرخين إلىٰ عدم القبول بقصة الجزيرة باعتبارها أسطورة تم نسجها لاحقًا، ولقد أوردناها هنا فقط من باب الاستئناس بالروايات التاريخية التي أخذت بعدًا في الفولكلور الشعبي. انظر نوريس:

H. T. Norris. New Evidences on' Abdhullah ibn yasin and the origin of theAlmoravid. The Journal of African History, vol, 12, 2, (1970), 255-268.

ركعة[١]. بل إنه استفاد من حالة العداء مع قبائل الصحراء ليشنّ عليها هجمات، قتل فيها رجالهم وسبىٰ فيها من نسائهم بطريقة استنكرها حلفاؤه في المغرب، ورأوا فيها شناعة غير مقبولة في دينهم وعرفهم[٢].

بفعل التماسك الفكري الجديد للمجتمع المرابطي الصغير أصبح قادرًا علىٰ التصدي للمجتمع الأم وإخضاعه. وهكذا في عام ١٠٣٤ هاجمت قوات عبد الله بن ياسين، التي نمت ووصلت إلىٰ الآلاف، قبيلة جدالة، التي تليهم، وتمكّنوا من تحقيق النصر بقوة مقاتِلة حدّدتها المصادر بثلاثة آلاف رجل استطاعت إخضاع القبيلة لنفوذ المرابطين. وفي المرحلة الموالية قامت قواتهم بمهاجمة أعدائهم من بقية لمتونة ثم مسوفة، الأبعد جغرافيًا. بنهاية هذه المعارك الجهادية، كان ابن ياسين قد ظهر بصفته أهمّ قوة الصحراء، دون منازع. وقد سمّىٰ ابن أبي زرع (ت ١٣٢٦) نظامه بـ «دولة الفقيه عبد الله بن ياسين في الصحراء». ودُشِّنَ انتصاره بتقادم الوفود إليه، مستسلمة ومُذعنة، ما قوّىٰ شوكته وجعله يفرض مراسيمَ لا أثر لها في الإسلام النصاني لطبع مرحلة الانتقال إلىٰ الدولة الدينية[٣]، وأصبح «هو الذي يأمر وينهىٰ ويأمر ويعطي»[٤]. ولم يتوانَ عن ترسيم حدوده وتأكيد سلطته عندما أمر بجلد كلّ من تاب مائة جلدة كإجراء تطهيري قبل الشروع في إدخاله في الرباط لتعلّم الدين[٥]. وأظهر ذكاءه التنظيمي عندما بدأ في توفير أساس مالي لدولته الوليدة، فأسّسَ بيتًا للمال مَبْنيًا علىٰ الضرائب التي أخذها في شكل الأعشار والزكوات من التائبين بعد تطهيرهم بالجلد، وهي الأموال التي استُخدِمت في إعداد جيش قوي ومسلّح قام به بمهاجمة القبائل التي لم تدخل في دعوته. ومن الواضح أن هذه الغزوات المرابطية الأولىٰ في الصحراء أتَتْ بكثير من العوائد علىٰ الدولة الفتية، بحيث إن أمير الصّحراء هذا أرسل الفائض منها

(١) ابن أبي زرع، ص ٨٥؛ الناصري، الاستقصا، ج ٢ ص ٨.

(٢) النويري، ج ٢٤ ص ١٤٢.

(٣) ابن أبي زرع، ص ٨٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٤ ص ١١- ١٦.

(٤) الناصري، الاستقصا، ج ٢ ص ٣.

(٥) ابن أبي زرع، ص ٧٩-٨٠

إلىٰ الرباطات المصمودية في الأعالي تبرعًا ومساعدة[١].

أما الأمر الثاني في ذكائه التنظيمي، فكان وعيه بالأهمية السياسية للمتونة فقام بتقديم يحيىٰ بن عمر أميرًا بعد وفاة يحيىٰ بن إبراهيم (الجدالي عند الصيرفي وابن أبي زرع). ومن الواضح أن ابن عمر وأخاه أبا بكر وابن عمهما يوسف بن تاشفين، كانوا ينتمون للأسرة السائدة في لمتونة؛ فقد تحدث المؤلف المجهول لكتاب **مفاخر البربر** عن بني تاشفين المنتمين لبني ورتنطق من لمتونة باعتبارهم أهل «الرياسة والملك»[٢]. إلاّ أنّه لم يرتهن لأسرة النبلاء، بل قدّم إشارات علىٰ أنه هو السيد في جميع الأمر؛ إذ قام بجلد الأمير الجديد عشرين جلدة عقابًا له علىٰ مخالفة وصاياه في الحرب[٣]، وقام بعد وفاة هذا الأخير بتأكيد سيادته هذه عندما جلد أيضًا خليفته وأخاه، الأمير أبا بكر بن عمر[٤]، بعد أن عيّنه أميرًا غداة وفاة يحيىٰ. وهذا الجلد هو ما اعتبره نهيما لفتزيون تأسيسًا لنظام شبه ثيوقراطي، حيث لم تنفصل السلطة الزمنية عن الدينية، بل اجتمعتا في عبد الله بن ياسين[٥].

❁ ❁ ❁

مع انتهاء الغزوات في الصحراء استفادت القوة الغازية المرابطية من دعوة وجهّتها لها الرباطات المالكية في وادي درعة. ففي هذا الوادي، وخصوصًا في حاضرته الأهم، سِجلماسة، لم تكن الأوضاع لتعجب الفقهاء. سياسيًا، كان النظام القائم فيها هو حكم النبلاء العسكريين المغراويين الذين اعتمدوا علىٰ فرض الجبايات والمغارم والمكوس، وهي تُعتبر تجبُّرًا غير شرعي في نظر الفقهاء الطُهريين، الذين لا يؤمنون بأي مغرم «غير شرعي». وزاد من نقمة الفقهاء علىٰ سِجلماسة طبيعة حياتِها المتحرِّرة؛ إذ كانت مدينة تجارية مستهلكة لاقتصاد التسلية

---

(١) نفسه، ص ٨٠. والشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصىٰ، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري. الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٥٤، ج ٢: الدولتان المرابطية والموحدية، ص ٩.

(٢) مفاخر البربر، ص ١٤٤-١٤٥

(٣) ابن أبي زرع، ص ٨١.

(٤) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج٨ ص ٨١.

(5) Nehemia Letzion. "'Abdellah Ibn Yasin and the Almoravids", 87.

والدِّعة، وكانت -مثلها مثل المدن المعلمية علىٰ الخط التجاري الإسلامي آنئذٍ- مدينة مترفة ووافرة بفعل تجارة السلع والأصناف عبر القوافل. وكان بها ازدهار للأنشطة التجارية الترفيهية؛ إذْ عمّت فيها دورُ الموسيقىٰ وحانات الخمور والنبيذ.

ولكنها كانت أيضًا مدينة الحركة العلمية الرباطية الصاعدة والمُتذمِّرة من هذا التوجُّه الاجتماعي للتجارة الترفيهية العابثة، واعتبرته نوعًا من «المنكرات». وبالفعل، فقد وجّه الفقهاء والرباطيون في درعة وسجلماسة رسالة إلىٰ ابن ياسين يحثّونه فيها علىٰ التدخل لوقف المنكرات والظلم، وهو الأمر الذي وافق عليه أمراء الصحراء، الذين يعتمد اقتصادهم أصلًا علىٰ الغزوات، وكانوا -علاوة علىٰ ذلك- مُضايَقين علىٰ مصادِر الرزق بسيطرة الزناتيين في الشمال والماندينغ في الجنوب، إضافة إلىٰ أن الصحراء كانت جدباء في تلك الأزمنة عندما شحّت الأمطار. ولعلّ أهمّ الأسباب كانت كثافة السكان؛ فصارت الصحراء ضيِّقَة عليهم، حسب تعبير ابن الأثير[1]. وسنلاحظ هذه الكثافة لمّا حلّ اللمتونيون علىٰ أغمات، فضايقوا سُكانَها بكثرتِهم فاضطروا لبناء مراكش لتَسَعَهُم[2].

في الشمال في المغرب يمكن ببعض الجزافية تقسيم الاستقطاب بين الفقهاء والقوة السياسية إلىٰ صراع قبلي، رغم أن هذا لا يصحُّ إلا إجرائيًا؛ لأن المصالح كانت متداخلة هنا وهناك. وعلىٰ العموم، فإن السلطة كانت في أيدي الزناتيين الذين سيطَروا علىٰ الأجزاء الكبيرة من المغرب وجنوبه في الربع الأخير من القرن العاشر، وذلك من خلال أسرتين قبليتين: بني يفرن المتوطِّدين في العاصمتين، سلا وتادلة؛ وبني مغراوة الذين حكموا فاس وأغمات وسِجلماسة. وقد دخلت هاتان الأسرتان في صراع فيما بينهما بدءًا من منتصف القرن الحادي عشر؛ فتشرذمَ الوضع السياسي إلىٰ ما يشبه وضعية إمارات الطوائف، وتحوّلت المؤسسات الحاكمة والتحالفات الأميرية والجُندية إلىٰ عصابات تقتحم البيوت أحيانًا لانتزاع الطعام من أهله، إضافة إلىٰ اقتصادها المعتمد علىٰ التغريم المجحِف للتجار. وهكذا كانت السلطة نوعًا من القوة العسكرية التي تقتات بالقوة

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٩ ص ٤٢٧.

(٢) الحلل الموشية، ص ١٥.

علىٰ الحواضر الصغيرة التجارية[١]. في المقابل، كان المصامدة والصنهاجيون ومجموعات جزولة ولمطة، من المتحضِّرين والرعاع، يتعرّضون لاعتداءات الزناتيين، ما جعلهم يجدون أكثر من سبب في استصراخ المرابطين[٢]. بل إن بعض الباحثين يعتبر أن الحركة المرابطية كانت تلعب هنا دورَ التعصب للصنهاجية السياسية ضد الزناتيين[٣]، خاصةً إذا علمنا أن الزناتيين كانوا الخصم العسكري الأبرزَ للصنهاجيين وقد قامت بينهم -بتعبير لسان الدين بن الخطيب (١٣١٣-١٣٧٤)- «حروب عظيمة وأضرار متصلة وحتائف ظاهرة وكامنة»[٤].

ومهما يكن من أمرٍ، فقد عزمت قوات ابن ياسين في عام ١٠٥٥ علىٰ التوسع باتجاه الشمال ونجحت في الإغارة علىٰ مسارح المغراويين وسلبتهم آلاف الإبل والأنعام (٥٠٠٠٠ ناقة حسب ابن أبي زرع). وبطبيعة الحال، لم يقِفْ المغراويون مكتوفي الأيدي؛ ولكن قوات الصحراء انتصرت عليهم في سلسلة معارك وصفها المؤرخ الفاسي الغرناطي بأنها «حروب عظيمة»[٥]. ودخل المرابطون المدينة التجارية علىٰ جثة أمير المغراويين الزناتيين، مسعود بن واندين. وقضت قواتهم الأيام القليلة اللاحقة في القضاء علىٰ دور الموسيقىٰ والحانات، وأعلنوا إنهاء نظام الضرائب وشرعوا في تقسيم الغنائم، التي استفادت منها الحركة الفقهية بسجلماسة ودرعة، وخلّف عبد الله بن ياسين عاملًا من لمتونة علىٰ المدينة ثم قفل راجعًا[٦].

لم تستمر العودة إلىٰ الصحراء طويلًا، خصوصًا بعد وفاة الأمير يحيىٰ وظهور

---

(1) Nehemia Levtzion. The Sahara and the Sudan, 663, 665.

أيضًا:

Letzion. 'Abdellah Ibn Yasin and the Almoravid, 94-95.

(2) Letzion. 'Abdellah Ibn Yasin and the Almoravids, 95.

(٣) نفسه، ص ٩٦.

(٤) لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجرُّ ذلك من شجون الكلام، تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، المغرب: الدار البيضاء، ١٩٦٤، ص ٦٢-٦٣.

(٥) ابن أبي زرع، ص ٨١.

(٦) ابن أبي زرع، ص ٨١؛ الناصري، الاستقصا، ج ٢ ص ٩.

أخيه، أبي بكر، محلّه. كما هو معروف، فإن أبا بكر بن عمر كان قائدًا حاذقًا وقد تصادفت إمارته مع نية المرابطين الاستمرار في عمليات الغزو والتوسّع إلىٰ أبعد مدىٰ، فكرّوا راجعين إلىٰ سلجماسة وما بعدها. ولكن البكري يحدّد سببًا آخر، وهو انتفاضة السِّجِلماسيين علىٰ المرابطين وقتلهم لواليهم. ولم يوقف غضب المرابطين تنامي أصوات الندم في سِجلماسة التي تراجعت عن الانتفاضة وطالبت بعودة المرابطين خصوصًا أن الخطر الزناتي بدأ يحوم علىٰ المدينة[١].

وعلىٰ العموم، فقد كان المرابطون قوة رهيبة ليس فقط -إن كان أصلًا- بسبب أشكالهم التي رأىٰ بعض المستشرقين أنّها كانت مخيفة للمغاربة[٢]؛ وإنما من خلال انتظامهم في ٣٠٠٠٠ أو ٥٠٠٠٠ محارب من الخيالة والمشاة[٣]، ضمنتها كثافتُهم السكانية وأحسَنت تنظيمها ثقافتُهم القتالية وصبرهم في الحروب الذي غذّته ثقافة الشرف عندهم. فقد كان التولّي من المعركة مذمّة وعارًا في عاداتِهم[٤]. وكان جوهر تفوقِّهم يكمن في قدرتهم علىٰ توحيد الخيالة بالمشاة إضافة إلىٰ احترافهم نظامًا فريدًا من الرماية وقذف المزاريف أو الرماح. وعلاوة علىٰ هذا، كان تنظيم الصفوف عندهم والتزامها ورفض الانصياع لمشتِّتاتها والانضباط مع الألوية متفوقًا علىٰ خصومِهم. وقد أعطىٰ البكري لوصفِ ذلك وقتًا قائلًا:

> ولهم في قتالهم جَلَدٌ وشدّة ليس لغيرهم، وهم يختارون الموت علىٰ الانهزام، ولا يحفظ لهم فرار من زحف، وهم يقاتلون علىٰ الخيل والنجب، وأكثر قتالهم رجالة صفوفًا بأيدي الصف الأول القني الطوال للمداعسة والطعان، وما يليه من الصفوف، بأيديهم المزاريف، يحمل الراجل الواحد منها عدة يزرفها فلا يكاد يخطئ ولا يشوي، ولهم رَجل

---

(١) البكري، ص ١٦٧.

(2) Le Chatelier. L'Islam dans L'Afrique Occidentale, 43.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٤ ص ١٤. وابن عذاري هو من أورد رقم ٣٠٠٠٠، أما رقم ٥٠٠٠٠ فقد أورده القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج٨ ص ٨٣.

(٤) الحلل الموشية، ص ٢١-٢٢.

قدّموه أمام الصف بيده الراية فهم يقفون ما وقفت منتصبة، وإن أمالها إلىٰ الأرض جلسوا جميعًا فكانوا أثبت من الهضاب، ومن فرّ أمامهم لم يتبعوه[1].

في العام نفسه (٤٤٨هـ/ ١٠٥٥) وصلت هذه القوة الضاربة إلىٰ السوس التي كانت آخر معقل للمصامدة، فأخضعتها ومنها توجّهَت إلىٰ ماسَّة، حاضرة الجزوليين. وهكذا انفتح الباب للجيوش المالكية إلىٰ تارودانت (في وادي السوس، شرق أغادير وجنوب مراكش)، حيث كانت فرقة من الخوارج تقيم دولة مبنية علىٰ تقديس مذهب علي بن عبد الله البجلي. في أقلِّ من عام، كانت قوات المرابطين قد أصبحت القوة الأساسية في بلاد السوس؛ فتمكّنت من إخضاع بقية القلاع شيئًا فشيئًا: درن، رودة، شفشاوة، نفيس، جديوة وأغمات (٣٠ كيلومترًا من مراكش). ولم تخضع كل هذه المناطق بالقوة، وإنما سلّم بعضها نفسه كما فعلت قبائل رجراجة وحاحة التي جاءت مبايعة. أما المناطق الأكثر قوة ومنعة، فقد حاربت وناوَرَتْ وخصوصًا المغراويين الذين قاتلوا في أغمات بقيادة لقوط بن يوسف. وعندما ظهر ضعف قواته فرَّ من أغمات ثم تحصّن في تادلة في تحالف مع بني يفرن، غرماء الأمس، وهنالك دارت معركة كبيرة بينهم وبين المرابطين انتهت بقتل الكثيرين من اليفرنيين ومقتل لقوط[2].

وهكذا في عام واحد ظهرت العناصر الصنهاجية الجديدة التي تقودها لمتونة بديلًا للزناتيين، أصحاب الثروة التجارية والرعوية في الشمال. ولم يكن هذا الانتصار مصدرَ سعادة للقبائل الصحراوية المنافسة للمتونيين، فثار حلفاؤهم الجداليون بينما كان الأمراء اللمتونيون -أبو بكر ويحيىٰ ويوسف- يحاربون في الشمال مع عبد الله بن ياسين، وتحرّروا من وصايتهم عليهم. ويبدو أن ابن ياسين استخَفّ بانتفاضة الجداليين أو لم يُقدِّرها حقّ قدرها؛ إذ بعث إليها بقوات لم تكن كافية تحت قيادة يحيىٰ بن عمر وأمير التكرور، لوبي بن وَارْجَابي بن ديّابي، الذي كان أبوه قد أسلم في حوض نهر السنغال وانضمّ هو للمرابطين.

---

(١) البكري، ص ١٦٦.

(٢) ابن أبي زرع، ص ٨٢.

ولا يبدو أن الجداليين -الأكثر تفوّقًا- وجدوا صعوبة كبيرة في كسر هذه القوة، وسرعان ما حاصروا المرابطين والتكرور في أزوكَي (أركي عند البكري)، علىٰ بعد ١٥ كيلومترًا[١] من أطار الحالية، شمال وسط موريتانيا. وكانت أزوكَي مدينة مرابطية بناها وانو بن عمر، أخو يحيىٰ وأبي بكر. فتحصّن بها اللمتونيون المرابطون واشتعلت بينهما معركة **تبفريلا** في عام ١٠٥٦ التي هاجم فيها الجداليون بجيش كثيف ربما تبالغ الروايات بالقول إنه بلغ ثلاثين ألفًا، وقتلوا فيها يحيىٰ بن عمر والكثيرين معه[٢]. ويبدو أن ثورة جدالة شجعت أيضًا ثورة لاحقة لمسوفة في إشارة تذمّر ثانية[٣].

ورغم أن السرديات الأصلية تُظهِرُ شبه تفرُّدٍ للمتونة بالفتوحات الشمالية، ما قد يدلُّ علىٰ أخذِهم مسارًا مُنفرِدًا عن التكتّل الصنهاجي الأعّم؛ إلاّ أنها تُخبِرُ كذلك بانتهاء الانتفاضات الصحراوية. بل ويبدو منها أن المكاسب المرابطية في الشمال أنقذت مصير المرابطين، وأقنعت القبائل المتذمرة بالقبول في الدخول في دولة ابن ياسين واللمتونيين والانضمام لحركة الجهاد بكل أرباحها ومجدها. ولا بدّ أنّ هذا أعطىٰ دفعًا للمرابطين ولرغبات القبائل الصنهاجية في السيطرة علىٰ المسارح الخصبة بين الشمال الصحراوي وجبال الأطلس. اختلطت هذه الرغبات بأيديولوجيا الجهاد ضد الخوارج، واستخدم عبد الله بن ياسين نفسه الآثار المقدسة في تأويل حربه علىٰ وادي درعة؛ إذ أظهر حديثًا منسوبًا للنبي ﷺ عن جبل يدعىٰ درعان سيُلقىٰ يوم القيامة في النار كما تلقىٰ العروس إلىٰ عروسها، واعتبر أن درعان تعني درعة. وهكذا أفنت قواته من اعتبرهم مجوسًا وكفرة[٤].

ورغم أن المرابطين كانوا حركة عسكرية أيضًا، إلا أنهم لم يعتمدوا مباشرة علىٰ المغارم والمكوس كما فعل أسلافهم بل كانت تكفيهم، ولو مؤّقتًا، الأعشار والزكوات، وطبعًا الغنائم المُستاقة، إضافة إلىٰ المسارح الخصبة المحرّرة؛ لأنهم

---

(١) تسعة كيلومترات بحسابات أخرىٰ.

(٢) البكري، ص ١٦٧-١٦٨. انظر أيضًا: لشاتلبير، ص ٤٥. ولا يتحدث ابن أبي زرع عن هذه النهاية المأساوية، وفي المقابل يتحدث عن وفاة الأمير بعيد الرجوع من فتح سجلماسة.

(٣) ابن خلدون، ج ٦ ص ١٨٤.

(4) Levtzion. The Sahara and the Sudan, 658

كانوا حركة بدوية ورعوية وغير مثقلة بأعباء الأرستقراطية ومطالبها المالية والإدارية والإنفاقية. ولذا، فإن غالبية الجماهير في المدن الزناتية استقبلت فتوحاتهم بالفرح لإسقاط المغارم والمكوس. وحالما حلّ المرابطون مشكلة الاقتصاد الرعوي المخنوق بالسيطرة علىٰ المسارح حتّىٰ كرّوا راجعين إلىٰ أوداغست التي سيطرت عليها غانا. ورغم أن المدينة كانت تقع في المجال الصنهاجي، إلا أن العنصر الصنهاجي تراجع أمام النفوذ الغاني وأمام التفوق الزناتي في التجارة. ورغم أن المدينة كانت مسلمة وبها مدرسة قرآنية، إلا أن المرابطين لم يغفروا لها ولاءها للملك الغاني الوثني. واجتاحتها جيوشهم واستباحتها ودمرتها. وهكذا سيطروا علىٰ منافذ التجارة وعلىٰ تجارة غرب إفريقيا، وصاروا أكبر قوة في المنطقة.

في الشمال، ومع الانتهاء من شأن الدولة الزناتية هاجم المرابطون نحلة تدعىٰ **البرغواطية** علىٰ بعد أربعين كيلومترًا من الرباط الحالية. وكانت **البرغواطية** توليفًا مذهبيًا ومزيجًا من الكلام (إذ ذهب زعيمها صالح بن طريف، إلىٰ المشرق ودرَس عند أحد أقطاب المعتزلة هو عبيد الله المعتزلي) ومن الصوفية وما سمّته المصادر بـ«**الزندقة**»، التي من الأرجح أنها كانت تحيل إلىٰ تصوّرات فلسفية غير مصنفة أو غير أرثوذوكسية. كان صالح ابنًا لطريف بن مالك، المجاهد الإسلامي الكبير في مطلع القرن الثامن، وكان في أصله أندلسيًا، نُسِبَ أحيانًا لليهودية، غير أنه لما عاد إلىٰ المغرب قام بتأسيس ديانة محرّفَة عن الإسلام المعياري، واعتبر نفسه رسولها وتسمّىٰ بـ«**صالح المؤمنين**». وساعده التقديس الذي كان يتمتّع به من قبل أنصاره في تأسيس مملكة وراثية متأسِّسة علىٰ دعم قبائل برغواطة وجرواة والرانس وغيرها[1]. ورغم أن البكري اعتبر أن برغواطة قد دخلت الإسلام بفضل جهود تميم اليفرني[2]، إلا أن غيره، أمثال ابن أبي زرع ومؤلف **مفاخر البربر**، رأىٰ أن الملة «المنحرفة» بقيت حيّة وشديدة حتىٰ مجيء المرابطين. ولا بدّ أن المرابطين -ورثة التصوُّرات السياسية المالكية الرباطية- كانوا معبّئين ضد برغواطة؛ ففي

(١) البكري، ص ١٣٥-١٤٠؛ ابن أبي زرع، ص ٨٤؛ الناصري، الاستقصا، ج ٢ ص ١٤-١٧.

(٢) البكري، ص ١٤١.

سجلماسة ودرعة كانوا قد قمعوا كل المظاهر التي اعتبروها فسقًا وانحلالًا، وفي الصحراء بدأوا في قتل الكلاب[١]. ولكن البرغواطيين لم يكونوا غيرَ متشبّثين بنحلتِهم؛ لذا عندما اصطدمت بهم قوات المرابطين في تامسنا دارت رحىٰ «حروب عظيمة وملاحم شديدة مات فيها من الفريقين خلق كثير»[٢]، وأصيب فيها ابن ياسين نفسه إصابَةً مُميتة في معركة عرفت بـ **تويفرلات** أو **كريفلن**[٣].

كانت آخر إنجازات عبد الله بن ياسين حرصه علىٰ وحدة سياسية لحركة المرابطين، فأوصىٰ وهو علىٰ فراش الموت مقاتليه: «يا معشر المرابطين إنني ميّتٌ من يومي هذا لا محالة. وإنكم في بلاد عدوِّكم؛ فإياكم أن تجبنوا أو تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وكونوا أعوانًا علىٰ الحق، وإخوانًا في ذات الله، وإياكم والتحاسد علىٰ الرياسة؛ فإن الله يُؤْتِي ملكه من يشاء من خلقه، ويستخلف في أرضه من أراد من عباده»[٤]. أسلم الروح بعد أن وجد من الوقت ما يكفي لضمان تجمُّع المرابطين خلف أبي بكر بن عامر.

❁ ❁ ❁

ويبدو أن أبا بكر حاول مواصلة النظام المرابطي المكوّن من ثنائية سياسية، قطبها القيادي رجل دين ورجل سياسة؛ فاستقدم الفقيه سليمان بن حدو، الذي كان أيضًا من تلامذة وجاج بن زلو، غير أنه توفي سريعًا في المعارك ضد البرغواطيين. وبعده ستتحوّل القيادة الدينية -ربما بفعل تعدّد العلماء أو بفعل ضعف نفوذ لمطة- إلىٰ مبدأ عام، ولم تعد مجرّد أمر محصور في شخص واحد. وتوسّعت القيادة الدينية لاحقًا بعلماء غير مقاتلين أمثال الإمام الحضرمي، قاضي أزوكَي، ولمتاد اللمتوني. وربما بفعل هذا التعدُّد بدأ دور القيادة الدينية يضعف في الشأن السياسي في الصحراء لصالح الزعامة القبلية في بني ورتنطق اللمتونيين،

---

(١) البكري، ص ١٦٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٤ ص ١١.

(٢) ابن أبي زرع، ص ٨٤.

(٣) يتردد المؤرخون في تاريخ هذه المعركة، فالبعض يعبرها حدثت في عام ١٠٥٨ والبعض يعتبرها في عام ١٠٦٠.

(٤) الناصري، الاستقصا، ج ٢ ص ١٤-١٧.

وتكرّست حقيقة تبعية القيادة الدينية للقيادة السياسية. وربما لم يتِمّ تحدي هذا النموذج إلا مع إحيائية ناصر الدين والمشيخيات الصوفية في القرن التاسع عشر وفي حركات الجهاد التكروري والفلاني والسونينكي في الجنوب. ومهما يكن من أمر، فقد انفسح المجال أمام أبي بكر بن عامر فشرع في مباشرة المعركة ضد البرغواطيين. وحسب الرواية المُهْمَلَة، ولكن الموحيّة، لابن الأثير فإن مصرع عبد الله بن ياسين كان ناجمًا عن هزيمة قوية للمرابطين، وأن أبا بكر بن عمر اضطُرَّ إلىٰ العودة للصحراء والإتيان منها بجيش قوي قهر به البرغواطيين نهائيًا[١]، وأنهىٰ ما سَمَّاه ابن أبي زرع بديانتهم «الخسيسة» و«السخيفة». ومن ثمَّ، واصل ابن عمر الفتوحات المرابطية التي انضمّ لها الكثيرون عندما توجهت إلىٰ فازاز ثم إلىٰ مكناسة ثم لواتة، معقل بني يفرن. ولم ينهِ المرابطون انتصارهم دون انتقام ووحشية في القضاء علىٰ المدينة الزناتية وتدميرها نهائيًا[٢].

أصبح ابن عامر سيّد البقاع الثرية في المغرب وكان عليه التوّقف قليلًا لضبط أمور مملكة المرابطين الوليدة، فقد اندلَعَتْ ثورة في الصحراء قام بها المسوفيون[٣]، وسيطروا بها علىٰ الصحراء في وقتٍ كان فيه الأمير الجديد مشغولًا بعطلة أعرَسَ فيها في مدينة أغمات بجميلتها، زينب (النفزاوية) بنت إسحاق الهواري، التي قضىٰ مقيمًا معها ثلاثة أشهر. وكان الانشقاق المسوفي فارقًا في شأن المستقبل السياسي لحركة المرابطين. فقرّرَ التوجه للصحراء لحلِّ خلافها بالسلام. واستخلف يوسف بن تاشفين الذي برز في ميادين القتال منذ المعارك الأولىٰ في الصحراء. وهو الاستخلاف الذي وافقت عليه قيادات المرابطين. وأقفل أبو بكر إلىٰ الجنوب[٤].

❁ ❁ ❁

(١) ابن الأثير، ج ٩ ص ٤٢٧.

(٢) ابن أبي زرع، ص ٨٥.

(٣) ابن خلدون،ج ٦ ص ١٨٤.

(٤) ابن أبي زرع، ص ٨٥-٨٦.

كان طبيعيًا أن تتطوّر الحركة الصحراوية التي تغنم في المغرب إلىٰ طبقة قوية ومتمكِّنة. وبدءًا من عهد أبي بكر بن عامر بدأت التراتبية في الظهور. أصبحت كلمة «**المرابطين**» مصطلحًا حصريًا للدلالة علىٰ الأمراء والقادة اللمتونيين، وسيصبح لقب «**مرابط**» لقبًا بلاطيًا ستُحرَمُ منه بقية القبائل التي سيُطلق علىٰ القادة منها لقب «**الحشم**». وستقوم هذه الطبقة بالتحكُّم حتىٰ في رموز النبالة ومعاييرها، فلن يسمح لغير الصنهاجيين بوضع اللثام، الذي أصبح إشارة القوة والعلو والزيّ الأميري في المغرب والأندلس. وكما لاحظ روبير كورنفان فسيتم إبقاؤه رمزًا للنبالة حتىٰ بعد سقوط المرابطين وقدوم الموحدين[1]. ربما كان اللثام في ابتدائه مجرّد إجراءٍ للوقاية من الحرِّ والبرد أو بقية من طقس وثني عتيق أو زينة صحراوية خاصة؛ ولكنه تحوّلَ مع صعود المرابطين إلىٰ رمز للعلو والوفرة. وسيلاحظ المؤرخ الكبير، ابن الأثير، أن المرابطين ضيّقوا ألثمتهم لما سيطروا علىٰ المغرب وأصبحوا حكامه[2]، وربما كان الأمر يتعلّق بموضة جديدة في اللبس. وهي الفترة التي سيظهر فيها التغني بالعمامة المرابطية، المنسوجة غالبًا من الثوب السابري الرقيق، باعتبارها إشارة كرم وتميز:

قَوْمٌ لهم درك العُلىٰ في حِمْيَر ... وإذا انْتَموا صنهاجة فَهُمْ هُم
لما حَوَوْا إحراز كلّ فضيلة ... غَلَبَ الحياءُ عليهم فتلثّمُوا

وأيضًا:

إذا التثموا بالريط خِلتَ وُجوههم ... أزَاهِر تبدو من فتوق الكَمائم
أوالتأَمُوا بالسابرية أبرزوا ... عيون الأفاعي من جُلودِ الأراقم[3]

كانت السنوات الأولىٰ قبل قفول ابن عمر إلىٰ الصحراء سنواتٍ توقّف فيها المرابطون عن المد العسكري، واكتفوا بتسيير المناطق التي وقعت في قبضتهم. وبفضل هذا نعمت المنطقة بهدوء، وإن شابته بعض التوترات، حسب البكري. ولم تنتهِ سنوات السلام، التي وصفها البكري بسنوات التشرذم، إلا مع عام

---

(1) Robert Cornevin. Histore d'afrique. Tome 1: des origines aux XVI siecle. Paris:Payot, 1962, p. 321. 349 فاسي

(٢) ابن الأثير، ج ٩ ص ٤٢٨.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج ٢٤ ص ١٤٦.

١٠٦٩ حيث زادت الخلافات السياسية بين المسوفيين واللمتونيين واضطرّت الأمير المرابطي إلىٰ الكرِّ راجعًا[١]، وإن كان مؤرخون أرجعوا سبب عودته إلىٰ مزاجه الورع، المتعفِّف عن الدنيا والسلطة[٢].

❁ ❁ ❁

كان يوسف بن تاشفين قائدًا صلبًا يمثِّلُ أعلىٰ الصور النمطية عن رجل الصحراء الشديد الشّم الأشكم، وكان مثالًا للراهب الجندي المُنتهِجِ للبساطة، الذي لا تُفسِده المدنيّة. ويؤكِّدُ ابن أبي زرع أنه، رغم سيطرته علىٰ كل الأقطار التي ملكها، فإن «لباسه ظلّ الصوف ولم يلبس قطُّ غيره، و[كان] مأكله الشعير ولحوم الإبل وألبانها، مقتصرًا علىٰ ذلك ولم ينتقل عنه مدة عمره»[٣]. وفي المغرب كان تقشّفه موضع إعجاب من البربر الذين دأبوا -بفعل الحياة التجارية- علىٰ البذخ وتفخيم المال؛ بل إن كورنفان بالغ قليلًا عندما اعتقد أن الإعجاب بتقشفه كان عاملًا في اختفاء البدع[٤]. ومهما يكن، ففي كثير من المناطق التي حلّ بها الأمير الصنهاجي استقبلته الجماهير المثقلة بالضرائب، وخاصة المزارعين والتجار الصغار، بحفاوة، ووجد كثيرٌ منهم في زهده وإلغائه للمغارم غير الشرعية إراحة لهم من الأغلال التي فُرِضَت عليهم.

بيْدَ أن زهد ابن تاشفين لم يمنعه من المغالبة علىٰ السلطة وأن ينتزع المُلْك من ابن عمه، أبي بكر بن عمر، الذي سارَعَ بالعودة إلىٰ الشمال ردًا علىٰ استبداد قريبه بالسلطة في المغرب، فأراد أن يعزله لمّا سمع بتعاظم سلطته. ولكن يوسف -الذي استفاد من نصيحة زينب النفزاوية التي طلّقها أبو بكر بن عمر لصالحه- لم يكن مستعدًا للتخلي عن الملك[٥]. كانت زينب امرأة متنفِّذة جدًا[٦] وجميلة

---

(١) ابن خلدون، ج ٦ ص ١٨٤.

(٢) الناصري، الاستقصا، ج ٢ ص ١٩-٢٠.

(٣) ابن أبي زرع، ص ٨٧.

(4) Cornevin, 321.

(٥) ابن أبي زرع، ص ٨٦-٨٧.

(٦) فمثلًا يشير النويري إلىٰ أنها كانت حظية علىٰ يوسف بن تاشفين و«أميرة عليه»، وهو أمر رأىٰ له =

لدرجة أنها سُمِّيَت بالساحرة[1]، أما ابن عِذاري (١٣١٢) فقد نقل الأساطير التي سادت في عهدها بأن لها علاقات مع الجن. كانت فتاة اشتهرت بطموحها في الصغر وبمكائدها في الكبر. وقد استفادت من جمالها الأخّاذ في التنقُّل من سلطة زائلة إلىٰ أخرىٰ صاعدة، فتزوجت أولًا زعيم المصامدة بأغمات وعندما انهزم علىٰ يد الزناتيين تزوّجت قاهره، لقوط المغراوي. وعندما انهزم لقوط تزوجت بدورِها قاهِرَه، أبا بكر بن عامر، الذي رأيناه يقضي معها أشهرًا في أوقات حاسمة. ومن الواضح أنها فضّلت يوسف عندما خلفها فيه، وقدّمت له نصيحة تَضْمَنُ إقصاء زوجها السابق، إضافة إلىٰ تمويلها لجيش أعدّه يوسف من العبيد السودان والأندلسيين في غياب أبي بكر[2]. وهكذا وقف ابن تاشفين بالمرصاد لابن عمر، وقدّم له إشارةً بانقلاب ضده. وهو الأمر الذي قبله أبو بكر بن عمر مضطرًا[3] وعاد إلىٰ الصحراء، مصرحًا أنه لن يخرج منها[4]، وإن كانت بقيت له سلطة علىٰ سجلماسة متمثِّلة فيه وفي أبنائه، كما سنرىٰ لاحقًا. وكنوع من الامتنان أو التعويض، فإن يوسف بن تاشفين بعث بهدية كبيرة من الذهب والثياب النفيسة والعبيد والجواري والحلي إلىٰ أبي بكر[5].

ومنذ تلك اللحظة تعمّقَ انقسام الشأن السياسي بين الصحراء والمغرب الذي سيوسِّعه يوسف بن تاشفين بأن ضمَّ له الأندلس. وصحيح أن نواة الفعل السياسي والعسكري في المغرب والأندلس ظلّت من الجيش اللمتوني والصنهاجي القادم من الصحراء، ولكن هؤلاء سينقطعون عن الصحراء مدة سبعين عامًا قبل أن يعود

= أصلًا في أمومية المجتمع الصنهاجي. أما مثال تنفذها فكان عزلها للقاضي ابن زرهون وردها له. النويري. نهاية الأرب، ج ٢٤ ص ١٤٦-١٤٧.

(١) الناصري، الاستقصا، ج ٢ ص ١٩.

(٢) المراكشي، البيان المغرب، ج ٤ ص ١٨.

(٣) وإن بقيت الرياسة تحت اسمه، حيث ستسك الدنانير باسمه وسيحافظ يوسف علىٰ الولاء الاسمي له. ابن أبي زرع، ص ٦٨-٨٧.

Jamil Abun-Nasr. A History of the Maghrib in the Islamic Period. Cambridge: Cambridge University Press, 1987, 81.

(٤) حسب صاحب الحلل الموشية.

(٥) الحلل الموشية، ص ٢٧-٢٨.

كثير منهم في جملة الهروب الكبير بعد أفول الدولة. أما أبو بكر بن عمر فقد عاد إلىٰ الجنوب واستمرّ في قتال القبائل الزنجية إلىٰ أن قتل في تگانت، وسط موريتانيا، بسهم طائش[1] في إحدىٰ المعارك ضد قبائل من الماندينغ.

❁ ❁ ❁

من منظور تاريخ الصحراء لم تكن حركة المرابطين إمبراطورية صحراوية بقدرِ ما كانت هِجرةَ نُخبة الصحراء وحُكْمِها للمناطق الغنية ولدول الشمال وانقطاعها عن الصحراء. فبعيدًا عن تشتُّتِ الصحراء كان مرابطو المغرب يبنون حُكمًا مختلِفًا. وكان من مساهمات ابن تاشفين الأساسية في تاريخ المرابطين تغييره لبنية الجيش، فقد ذهب أبو بكر بن عمر بثلثي الجيش المرابطي إلىٰ الصحراء[2]، وكان لا بدّ من طريقة لتفعيل الجيش قبل أي خطوة قادمة. ولعل يوسف -المقاتل والقائد القادم من صفوف الجيش المرابطي- قد عرف خطورة الخلافات فيه، حيث لا ينتظم في أواصر الجندية بقدر ما تتخلّله اعتبارات المنافسة القبلية، فبدأ في بناء وحدة عسكرية مُكتَتَبَة أساسًا من العبيد، الذين تمّ شراؤهم من السودان، ثم أرسل لشراءِ المسيحيين من الأندلس[3]، مستبقًا **النموذج الإنكشاري** الذي سيعطي عمر القرون للدولة العثمانية. وهكذا أصبحت في جيشه نواة لا تتخلّلها السياسات البدوية المتغيرة دائمًا، بل ترتهن لقيادة مركزية تملِك ذمتَها وولاءَها.

وليس معنىٰ هذا أن التنظيم العصبي الذي اعتبر ابن خلدون أنه قوة الممالك الصاعدة فقد قيمته في تنظيم يوسف بن تاشفين (وإن لم يشترط ابن خلدون في العصبية أن تكون قبلية)، بل إن هذا بنىٰ جيشه أيضًا علىٰ العصبية القبلية فقَسّمه إلىٰ أربعة أقسام مفصّلة تفصيلًا عشائريًا واضحًا فتأمّرَ الأمراء الأربعة (محمد بن تميم الجدالي، وعمران بن سلمان المسوفي، وسير بن أبي بكر اللمتوني، ومدرك

(١) ابن عذاري، ص ٢٦؛ الناصري، ص ٢٠.

(٢) الحلل الموشية، ص ٢٤-٢٥.

(٣) العادة كانت عند ملوك الطوائف حسب أبي نصر، ص ١٠١؛ الحلل الموشية، ص ٢٥؛ ابن عذاري، ص ٢٣.

التلكاني) فيلقًا من ٥٠٠٠ محارب[١]. ورغم أنه عيّنَ بعض الأمراء الزناتيين علىٰ تلمسان ومكناس[٢] واستفاد من قوة مصمودية كبيرة، إلاّ أن القوة الأساسية كانت صنهاجية.

وباشر ابن تاشفين الفتوحات التي خمدت لفترة. وفي عام ١٠٧٠ ظهر جيش المرابطين في جنوب المغرب، حيث بنىٰ مدينة مراكش[٣] التي اشتراها من المصموديين بأموال صنهاجة الصحراء[٤]، وكانت منطلقًا للفتوحات المرابطية ومنها أنهت جيوشه بقايا نفوذ بني يفرن ومغراوة، قبل أن تنطلق إلىٰ زواغة ولماية وبهلولة. وفي عام ١٠٧٠ وصلت قواته مشارف فاس ثم تجاوزتها إلىٰ صفرو. وقد دفع صدىٰ هذه الفتوحات وهيبتها أمير مكناسة إلىٰ مبايعته، ولكن في إطار صراعاته مع أمير فاس الذي استطاع هزيمة مكناس والتحالف مع اليفرنيين مكوِّنًا جيشًا استطاع به هزيمة المرابطين بينما كان يوسف بن تاشفين يحاصر قلعة فازاز، التي تحصّنَ بها البربر في جنوب سايس. وهو ما اضطر يوسف إلىٰ العودة وإخضاع نواحي فاس كفندلاوة وورغة، وذلك بغرض محاصرة الزناتيين بفاس. ثم واصل مسيره في المغرب حتىٰ الريف في طنجة. ثم كرّ راجعًا علىٰ فاس في مارس عام ١٠٧٠. وبعد معارك قاسية انتقم المرابطون من الفاسيين من قبائل مغراوة ويفرن ومكناسة؛ إذ قتلوا منهم الآلاف. وفي جامع القرويين وجامع الأندلس قتلوا ثلاثة آلاف قتلًا ذريعًا، حتىٰ انتشرت الجثث في الشوارع

---

(١) ابن أبي زرع، ص ٨٨-٨٩.

(٢) الحلل الموشية، ص ٢٨.

(٣) يعتبر مؤلف الحلل الموشية أن باني مراكش هو أبو بكر بن عمر، ص ١٥. وفيما يخص تاريخ ميلادها فقد دأبت المصادر التاريخية علىٰ اعتبار العام ١٠٦٢ هو عام بناء مراكش، غير أن الأبحاث الحفرية لليفي بروفنسال وهويسي ميرندا قد حددت العام ١٠٧٠ كعام حاسم لتأسيس المدينة. أيضًا انظر نقاش عبد الودود ولد الشيخ وبرنار سيزون لهوية باني مراكش، وهل هو يوسف بن تاشفين أم أبو بكر بن عمر:

Abdel Wedoud Ould Cheikh and Bernard hi. "Vie(s) et mort(s) de al-Imam al-Hadrami: auteur de la posterité saharienne du movement al Moravide (11^{e}-17^{e} s) ". *Arabica*, T. 34, Fasc. 1 (Mars., 1987) , 8, Marge, 29.

(٤) الناصري، ص ٢٢.

والمساجد وهرب من استطاع من بني يفرن ومكناسة إلىٰ تلمسان[1]. وكان أول ما فعله المرابطون، وبأمر من يوسف بن تاشفين، هو هدم الطابع العسكري لفاس؛ فدمّروا حصونها وبنوا فيها الفنادق والحمامات والمساجد[2].

غيّرَ رجال الصحراء مدنية المغرب فأهدوه مدينة مراكش وتادملت ونزعوا الطابع العسكري عن مدينة فاس، التي وحّدوها بعد أن كانت منقسمة إلىٰ مدينتَين فُصِلتا بجدار، ودمّروا طبقة المغرب المقاتلة وشتّتوها نهائيًا. وبسطوا نفوذهم علىٰ مغرب جديد أذعنت طبقته السياسية للنظام الجديد، وتلقّىٰ فيه يوسف بن تاشفين بيعة أمراء وشيوخ البربر من الزناتيين والمصامدة وغمارة وغيرها وقام بكسوتهم. ولكنه أيضًا سعىٰ إلىٰ استبدال مقاليد الأمور والإمارة ووضعها في أيدي الأمراء الصحراويين الذين شكّلوا طبقة «من الولاة الملثمين»، وصفهم صاحب **الاستبصار** بأنهم كانوا «رجالًا عظماء فضلاء»، وكانوا مقصد الشعراء يمدحونهم رغم أن شعراء كثيرين هجوهم، ربما للسبب ذاته المتعلِّق بخلقِهم مجتمعًا سياسيًا جديدًا[3].

ويتضِّحُ أن يوسف بن تاشفين حرص علىٰ تأمير رجال لمتونة علىٰ المناطق المفتوحة، فعهد إلىٰ ابنه -تميم- بولاية أكثر المدن كأغمات وتادلة ومراكش، العاصمة، وتامسنا والسوس وسائر بلاد المصامدة؛ أما القائد العسكري سير بن أبي بكر اللمتوني فقد تولّىٰ مكناسة ومعلاتة وفزان؛ وولّىٰ عمر سليمان علىٰ فاس؛ فيما ولّىٰ داوود بن عائشة علىٰ سجلماسة ودرعة[4]. وعندما سيطر المرابطون علىٰ الأندلس، فإن الأمراء اللمتونيين ظهروا متأمِّرين علىٰ المدن الأندلسية كأمراء حكريين عليها في قرطبة وبَلنسية وإشبيلية وغرناطة ومَرسية

(١) ابن أبي زرع، ص ٩٠- ٩١.
وأيضًا: د. جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين: ٤٤٨هـ/١٠٥٦م إلىٰ ٦٦٨هـ/١٢٦٩م: دراسة سياسية وحضارية، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ٢٠٠١، ص ٨٨-٨٩.

(٢) ابن أبي زرع، ص ٩١.

(٣) الاستبصار، ص ٧١- ٧٢.

(٤) ابن أبي زرع، ص ٨٨.

وسرقسطة. بل إننا سنشاهد قواد الحملة اللمتونية في المغرب يُحَولُون مباشرة ليحكموا إمارة المدن الأندلسية كما كان حال القواد المرابطين الكبار كسير بن أبي بكر ومزدلي بن سلنكان ويحيىٰ بن غانية وآخرين[١].

رغم السيطرة الإدارية، إلا أنه ما أمكن للمرابطين أن يحكموا من دون قبائل البربر المغربية فأعطوها دورًا وشراكة وخصوصًا في الحكم المحلي، وربما حفّزَ علىٰ هذا التقاسم السلطوي الطبيعةُ الأرستقراطية للنخب المرابطية ذات الأصول الرعوية التي لم تكن متمرِّسة في الحكم الإداري؛ فاضطرّت لترك مجالات الخبرات للأهالي ولبعض إداريي النظام القديم. ولا ريب أن هذا صِيغ بلغة دينية تقليدية؛ إذ ردّ يوسف بن تاشفين أحكام البلاد إلىٰ القضاة بعد أن كانت مركزية الزناتيين قد أقصتهم من المشاركة، جاعلةً الحكم حكم السلاطين، لا الشريعة[٢]. كما منحهم فرصًا من خلال في تأطيرهم في الجيش، حيث يتحدّث ابن أبي زرع عن جيش ابن تاشفين المتكوِّن من مائة ألف مقاتل من صنهاجة وجزولة والمصامدة وزناتة والأغزاز والرماة[٣]. وسيظهر المحاربون البربر من الزناتيين والمصامدة بكثرة في جيش المرابطين في الأندلس. وبفعل هذه القدرة علىٰ اكتتاب المحاربين من المغرب، بدلًا من الاضطرار إلىٰ العودة إلىٰ الصحراء لجلب المقاتلين كما كان يفعل أبو بكر بن عامر، ضمن يوسف بن تاشفين استقرارًا لنظام المرابطين في البنية الاجتماعية المغربية.

في بداية الثمانينيات استخدم يوسف هذه القوات في توسيع إدارة نفوذ المرابطين، ونجح بها في قهر القوىٰ التي رفضت الانصياع له كالدغنة وغيانة. ثم توجه شمالًا فهاجم طنجة في حوالي عام ١٠٧٧ بـ ١٢٠٠٠ فارس وواجه بها قوات سكوت البرغواطي، آخر الأمراء البرغواطيين. الذي كان شيخًا يبلغ السادسة والثمانين حولًا فقضىٰ فرسان المرابطين عليه وعلىٰ دولته[٤]. وفي السنوات اللاحقة توجّهَ إلىٰ الشرق الجزائري، حيث استطاع أخذ تلمسان ووهران

---

(١) مفاخر البربر، ص ١٨٩-١٩٢.

(٢) ابن أبي زرع، ص ٨٨.

(٣) نفسه، ص ٨٩.

(٤) نفسه، ص ٩٨.

في عام ١٠٨٢، وبعد عام سيطر علىٰ الشمال المغربي وسيطر علىٰ سبتة وأصبح علىٰ بعد أميال من الأندلس. ورغم أنه كان يمكن لقواته أن تفتح الجزائر، إلاّ أنها توقفت عن التقدم شرقًا بسبب الانشغال بالصراع في الأندلس. لقد أصبح رجال الصحراء الذين كانوا يعانون من القحط الشديد الآن سادة كلِّ المجال من الصحراء إلىٰ المغرب والجزائر، فجعلوا القوات الموجودة في المجال رهنًا لهم وإلا فإنهم كسروها كلية.

❁ ❁ ❁

ابتداء من العام ١٠٣١ انهارت السلطة الأموية في الأندلس مخلِّفة فراغًا كبيرًا وصل مداه حتىٰ المغرب. وكانت تداعيات هذا في العقود القادمة عاملًا مساعدًا في التوسُّع المرابطي. فرغم أن الأندلس كانت تعيش ازدهارًا علميًا شهيرًا، إذ تراجع بها التزمت وازدهَرَ بها الأدب والعلوم والفنون؛ إلا أنها كانت في حال ضياع سياسي، وحتىٰ أمني؛ فقد سادت الطوائف وهي سلطات متشرذمة متنافرة بينها في مواجهة قوة ليون وقشتالة المتماسكتَيْن[1]. وفي عام ١٠٨٥ هاجم ألفونسو (الأدفونش كما عرفه المسلمون) إشبيلية وحاصر سرقسطة التي كانت تحت إمرة المستعين بن هود (حكمَ في الفترة ١٠٨٥-١١١٠). وكان مصرًا علىٰ إنهاء نفوذ المسلمين في كلّ الأندلس، فرفض ردّ هجومه بعروض دفع المال من قبل سرقسطة وخرّب القرىٰ المحيطة بإشبيلية، التي كانت بمثابة خطوطها الدفاعية. ولم يبقَ أمام أمراء الأندلس غير الاتفاق علىٰ الإنفاذ إلىٰ فاتح المغرب ورجله القوي لمساعدتهم بجيشه. وفي البداية سادت بينهم مخاوف من أن المرابطين قد يقومون باحتلال الأندلس إذا سُمح لهم بدخولها، وهي الحجة التي يُقال إن المعتمد بن عبّاد صرفها بعبارة شهيرة: «والله لأن أرعىٰ الغنم في فلاة المغرب أحبّ إليّ من أكون راعي خنازير بقشتالة»، مع أنّنا نعرف لاحقًا أن ابن عبّاد سيُحاول بقوّة إبعاد المرابِطين ولو بالتحالف مع ليون وقشتالة.

انتظر يوسف بن تاشفين قليلًا لتصفية شأن سبتة، آخر القلاع خارج سيطرة

(١) بنو عباد في إشبيلية، بنو الأفطس ببطليوس، بنو عبد النون بطليطلة، بنو هود بسرقسطة، ومجاهد العمري بدانية. الناصري، ص ٣١.

المرابطين، وما إن فتحتها قواته حتىٰ عبر مضيق جبل طارق إلىٰ الأندلس. ولم يتوقّف الجيش المرابطي، الذي أسرع الخطىٰ، إلا عند الزلاقة (ساغراس) قرب بادجوز Badjoz الحالية، حيث سيخوض إحدىٰ أهمّ المعارك التاريخية التي خاضها أهل الصحراء أبدًا، وإحدىٰ معارك المسلمين المصيرية والعظيمة. في البداية، ولدىٰ مقدم جيش المرابطين، اتفق يوسف بن تاشفين مع ألفونسو عن طريق مراسلات استفزازية علىٰ المواجهة. حاول ألفونسو القيام بمفاجأة قوات المرابطين والأندلسيين بعد الاتفاق علىٰ إجراء المعركة بعد انتهاء أيام العبادة للمسلمين واليهود والمسيحيين، الجمعة والسبت والأحد. وبدلًا من أن تبدأ المعركة في الاثنين هاجم ألفونسو يوم الجمعة غير أنه فقد عنصر المفاجأة عندما تصدّىٰ له الجيش الأندلسي-المرابطي في معركة علا دويُّها طويلًا. حسب ابن أبي زرع، فإنه من بين الثمانين ألف مقاتل من القشتاليين وحلفائهم الذين خاضوا **معركة الزلاقة** لم يعُد غير مائة إلىٰ أرضهم وعلىٰ رأسهم ألفونسو جريحًا. أما الباقي فقد سحقهم مقاتلو الصحراء والمغرب والأندلس. وقام المرابطون بقطع رؤوس القتلىٰ وجمعها علىٰ هيئة هضاب ثم بعث بها يوسف لملوك الطوائف[١]، ربما لكسر الخوف والرهبة في نفوس المسلمين من قوة القشتاليين. كانت **الزلاقة** تاج المرابطين وقد أظهرتهم كقوة الإسلام الأساسية في البحر الأبيض المتوسط وإيبرية.

كان طبيعيًا أن تستيقظ مطامع رجال الصحراء في الأندلس. وقد بدأ يوسف بن تاشفين يُظهر هذا مباشرة بعيد هذا الانتصار. تسمّىٰ بـ**أمير المسلمين** في يوم الانتصار، وبعث برسالة انتصار إلىٰ الأقطار الإسلامية. وقد اعتقد ابن أبي زرع أنه لولا نبأ وفاة ابن يوسف، أبي بكر، في سبتة، لما غادر الأندلس عائدًا إلىٰ المغرب[٢]. وهكذا غادر مغمومًا. غير أن فرصته جاءت في عام ١٠٨٨ عندما بدأت غارات القشتاليين تضايق ملوك الطوائف مرة أخرىٰ. فقد فضّ المقاتل القشتالي الأسطوري رودريغوز ديار دفيفار، المعروف بالسيد، تحالفه مع آل هود

(١) ابن أبي زرع، ص ٩٣-٩٩.

(٢) نفسه، ص ٩٨.

وقام بالهجوم علىٰ الطوائف بعد مصالحته مع ألفونسو؛ فقام بفرض الجزية علىٰ الملك القادر باسم ألفونسو وعلىٰ بني رزين وعلىٰ القاسميين[١]. ثم هاجمت قوات ألفونسو حصن لبيط، المعروف في المصادر الغربية بـ Aledo، الموالي للمعتمد بن عباد وقام بمحاصرته والتضييق علىٰ مملكة المعتمد، الذي لم يبقَ له غير إعادة البعث في طلب مساعدة يوسف بن تاشفين.

ويبدو أن موقف ابن تاشفين كان غامضًا؛ إذ تلكّأ أوّلًا في الاستجابة للدعوة حتىٰ عبر إليه المعتمد بشخصه والتقاه علىٰ ضفة نهر سبو، قرب سلا في المغرب واستنجدَه في التدخل فوافق علىٰ المساعدة. وعبرت قوات المرابطين إلىٰ الجزيرة للمرة الثانية، وذلك في يونيو عام ١٠٨٨[٢]. وقامت مدعومة من جنود المعتمد بن عباد ويوسف بن عبد العزيز بمحاصرة ١٢٠٠٠ مقاتل موالين لألفونسو مدة أشهر في «لبيط»، متسبِّبَة في قتل أكثرهم وذلك قبل أن يضطرّ يوسف بن تاشفين إلىٰ فكِّ الحصار بعد أن قام خلاف بين المعتمد وابن عبد العزيز. وهكذا هاجم ألفونسو الحصن بعد أن تراجعت قوات يوسف بن تاشفين وحرّر البقية القليلة من قواته علىٰ وجه السرعة تاركًا الحصن للمعتمد بن عباد[٣].

من الواضح أن يوسف بن تاشفين قد صار زعيم الأندلس في هذه الزيارة، رغم أنه لم يصبح بعد زعيمها الحقيقي؛ فقد أمر ملك مرسية، ابن رشيق، المساجد بالدعوة له بدلًا من المعتمد بن عباد. وكدليل علىٰ قوة ابن تاشفين في الأندلس في الزيارة الثانية، فإنه أمر بتقييد ابن عبد العزيز -حسب روايات- علىٰ إثر خلاف بينه وبين المعتمد؛ أما روايات أخرىٰ فتعتقد أن ابن تاشفين حاكَمه اشتباهًا في خيانته في **حصار لبيط**[٤]. وكان ثمة خوف في أوساط أمراء الطوائف من قوته وجيشه في الأندلس، فكان ملك غرناطة، عبد الله، يخاف من أي وشاية إليه، وخصوصًا من قاضي غرناطة، ابن الخليعي، الذي كان يوافق سياسة المرابطين في الضرائب وكان يريد تطبيقها في الأندلس. وقد استغلّ الأمراء

---

(1) Ronald A. Messier, *The Almoravids and the Meaning of Jihad* (California: Praeger, 2010, p. 96.

(٢) نفسه، ص ٩٦-٩٧.

(٣) ابن أبي زرع، ص ٩٨-٩٩.

(٤) حسب ابن أبي زرع، ص ٩٩.

المرابطون هذا الخوف، فقاموا باستدرار الهبات والأعطيات من ملوك الطوائف، كما حدث مع ملك غرناطة نفسه الذي اضطرّ للدفع إلىٰ قائد مرابطي، وكابن رشيق نفسه، الذي دفع عطايا للقائد اللمتوني سير بن أبي بكر وذلك في **حصار لبيط** حتىٰ يتمتع بحمايته[١]. وعندما حاكم ابن تاشفين ابن رشيق فإنه ساهم في إعادة مرسية للتبعية لإشبيلية (آل عباد)، وتم تعيين الراضي بن المعتمد واليًا عليها[٢]. وهكذا عندما غادر المرابطون الأندلس للمرة الثانية، فإنهم كانوا قوة فاعلة ليس تجاه عدو خارجي فحسب؛ وإنما في الموازنة الداخلية.

عندما غادر يوسف ابن تاشفين الأندلس مستاءً من غالبية ملوك الطوائف، قرّر ألا يعود للأندلس في المرة الثالثة إلا وقد قهرهم؛ وكان هذا محور غزوته الثالثة[٣]، هذا بالإضافة إلىٰ أطماعه في الأندلس التي أثارته بجمالها وخصوبتها منذ دخوله الأول. وفي العامين اللاحقين استطاع الحصول علىٰ دعم من فقهاء العالم الإسلامي وعلىٰ رأسهم أبو حامد الغزالي الذي كتب رسالة في دعمه وأيّده فيها العلماء المشارقة. وفي عام ١٠٩٠ عبر إلىٰ الأندلس فاتحًا، لا ناصرًا. وبدأ حملة ضد ملوك الطوائف وتصفيتهم بتهمة الفساد وموالاة أعداء الله وفرض المغارم غير الشرعية. سيطر بسهولة علىٰ طليطلة ثم غرناطة ثم حاصرت قواته إشبيلية بجيش قاده سير بن أبي بكر اللمتوني، في الوقت نفسه الذي كانت قواته تنتزع مدن المعتمد وأهمها، قرطبة، التي كان يحكمها ابنه المأمون بن المعتمد. وهكذا سيطر رجال الصحراء والمغرب علىٰ المدن الصغيرة والحصون كبيادة وأيدة وحصن البلاك والمادون والصخيرة وسقورة. وعندئذ اضطرّ المعتمد بن عباد، في صراع بقاء سياسي يائس، إلىٰ الاستعانة بعشرين ألف مقاتل من ألفونسو. ودارت معارك قوية بينهم وبين المرابطين بقيادة سير بن أبي بكر. وأمام هزيمة القشتاليين في عام ١٠٩٤ استسلم المعتمد بن عباد[٤]، وسيطر ابن تاشفين علىٰ عموم بلاد الطوائف باستثناء سرقسطة، التي بقيت في يد بني هود لدواعٍ

(1) Messier, 97-98.

(٢) نفسه، ص ٩٩.

(٣) ابن أبي زرع، ص ٩٩.

(٤) نفسه، ص ١٠٠-١٠١.

استيراتيجية. وخلع المرابطون مباشرة جميع ملوك الأندلس، ونفىٰ ابن تاشفين المعتمدَ إلىٰ أغمات وهو يرسف في الأغلال حيث عاش مع أهله في حالة من الحرمان وسوء المنقلب. بقيت صورة نهايته المأساوية للأجيال من خلال قصيدته التي ندب بها حظه وعكس بها حال ملوك الطوائف ومصيرهم:

فيما مضىٰ كنتَ بالأعيادِ مسرورًا وكان عيدكَ باللّذات معمـــورًا
وكُنتَ تحسب أن العيد مســعدةٌ فجاءك العيدُ في أغمـاتَ مأسورًا

إلخ . . .

❁ ❁ ❁

مع التوطد في الأندلس والمغرب والجزائر ابتعد مرابطو الصحراء عن تاريخ الصحراء، ودخلوا في التاريخ العالمي للإسلام. ربما كان أبو بكر بن عامر رأس الاتجاه الحنون للصحراء وحياتها. وكان من بين أسباب إقفاله إلىٰ الصحراء تعاطفه مع إحساس سكان الصحراء بأن توغُّلَه في أغمات قد أضاعهم، كما عبّرت عن ذلك عجوز من الصنهاجيين قالت باكية بعد ضياع ناقة لها: «ضيّعنا أبو بكر بن عمر بدخوله إلىٰ بلاد المغرب». ولعلّ الأمير الصنهاجي كان أصلًا يفضِّلُ الصحراء، وكان، كما شخّصه المؤرخ الكبير ابن خَلِّكان، «مُؤْثرًا لبلاده علىٰ بلاد المغرب غير ميّالٍ إلىٰ الرفاهية»[1]. في المقابل كان ابن تاشفين وقواده اللمتونيون رأس الهجرة العسكرية إلىٰ الأعالي. بقي ابن تاشفين ملكًا لدولة المرابطين الكبيرة، وتوفي عن عمر يناهز المائة عام بعد أن اعتلّ وهو بمراكش. ولكنه ضمن بيعة الصنهاجيين لابنه علي، معيدًا النظام الوراثي الصنهاجي الذي انقطع بعد آل تن باروتان والقلاقل الصنهاجية قبل قرابة قرنين. كان علي يمثِّلُ القطيعة مع الحياة الصحراوية، فبعكس جيل يوسف بن تاشفين وقواده من رجال الصحراء الذين كبروا وترعرعوا بها وعاشوا بها أغلب أعمارهم، فإن الأمير الجديد قد نشأ في سبتة وترعرع بها، رغم أنه لم يشكِّل قطيعة مع تقشّف أهل الصحراء الذي سار عليه والده.

(١) الناصري، ص ١٩؛ أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت لبنان، ج ٧ ص ١١٣.

في الأندلس والمغرب سرعان ما دخل المرابطون حياة الدعة ونسوا التشدُّد الديني الذي أتوا به لحياة الأندلس. ورغم أن حركتَهُم قضت علىٰ مظاهر الموسيقىٰ والاختلاف الفكري في بداية دخولهم الأندلس، إلا أنهم سرعان ما أصبحوا جزءًا من نظام الأندلس الثقافي الذي نقموا عليه بملاهيه وموسيقاه، وسرعان ما صاروا طرفًا من أرستقراطية الأندلس وبدأت الموسيقىٰ تزدهر بحيث إن كتاب ابن باجة المفقود في الموسيقىٰ، والمُؤلّف في العصر المرابطي، أصبح أكثر الأعمال في الموسيقىٰ تأثيرًا في الإسلام وأكثر تأثيرًا من أعمال الفارابي الموسيقية[١]. ولكن ثقافتهم الصحراوية ظلّت ملازمة لهم رغم محاولتهم مزجها بثقافة الأندلس. وفي أحيان كثيرة كان هذا الخليط غير محظوظ؛ فمن جهة لم يطبَع النموذج المرابطي الحياة الأندلسية والمغربية بشكل عميق، ومن جهة أخرىٰ لم تقبل الحركات الدينية المتشدِّدَة بنموذج المرابطين، بل اعتبرته زيغًا وضلالًا. في أطراف الدولة المرابطية كان غضب الحركة المهداوية الموحِّدية من رفاه المرابطين وقبولهم للموسيقىٰ ومن اختلاط رجالهم ونسائهم وتبرُّج النساء يؤجِّجُ العوام المتديِّنين الذين انفتحوا للدعوة الموحدية، التي بدأت أمرها بتكسير المزامير والعيدان والكيتارات (التسمية الأقدم للقيثارات) وتغيير ما تعتبره مناكرَ في فاس وتلماس ومكناس وغيرها[٢]. وذهب أهل هذه الدعوة الناقمة إلىٰ اعتبار المرابطين فُساقًا وسموهم بالمجسِّمين[٣]. من هذه الحركة المهداوية ستبزغ قوة عسكرية دعوية وستُنهي عقود المرابطين السبعة في سيادة المغرب والأندلس.

---

(1) Philip Hittie. History of the Arabs, 3rd Edition. London: Macmillan and Co., Limited, 1946, 599.

(٢) البيذق، أخبار المهدي، ص ٢١- ٢٦.

(٣) نفسه، ص ٥١.

- ٩ -

المرابطون في الصحراء (ق ١١-ق ١٣)

«الأعراب خارج الصحراء كالسمك خارج الماء»

ليون الإفريقي[١]

مع رجوع أبي بكر بن عمر إلىٰ الجنوب بدأ الانفصال، ولكن ليس القطيعة، ينهض تدريجيًا بين مرابطي الصحراء ومرابطي الشمال. كانت مساهمة مرابطي الصحراء هي تقديم حركة عسكرية قوية أعطت دفعًا للمد الإسلامي في الأندلس، وبنت مراكش التي أكدّ المؤرِّخون علىٰ بنائها بالمال الذي خرج به يوسف بن تاشفين من الصحراء[٢]. ولكن فيما عدا هذا، فإن جلّ رجال الصحراء ونسائها عادوا إليها مع أبي بكر بن عمر، تاركين الطليعة تبقىٰ مع يوسف بن تاشفين في هجرته العسكرية إلىٰ الشمال. ومع هذا الاقتسام غير المكتوب للمُلْك بدأ شِقا مملكة المرابطين يسيران في سيرورة تاريخية مختلفة، وإن بقيت مرتبطة شيئًا ما.

وفي البداية لم يُسلِّم الجميع بهذا الانقسام السياسي، بل عانده الكثيرون منهم. فقد بقيَت عائلة أبي بكر بن عامر في جنوب المغرب مسيطرة لفترة، وهي سيطرة ربما كانت تعود لفترة العودة الوجيزة لابن عامر إلىٰ المغرب لاستعادة المُلْك من ابن تاشفين. ففي هذه العودة عيّن أبو بكر ابن أخيه، أبا بكر بن

(١) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٨٣، ج ١ ص ٤٦.

(٢) الناصري، ٢، ٢٢.

إبراهيم بن عمر، خليفةً له علىٰ سجلماسة[١]. وعندما عاد أبو بكر إلىٰ الصحراء لم تعترِف عائلته، وخصوصًا نجله، إبراهيم الأسوَد، بخلع أبيه؛ بل أراد ترجمة سلطة والده الاسمية إلىٰ مُلك وذلك بمتابعة حقِّه كسلطان علىٰ المناطق الشمالية. وقد نجح بالفعل في التأمُّرِ مدة سنوات تتراوح ما بين العامين إلىٰ الأربعة[٢] علىٰ سجلماسة التي ضُرِبت النقود فيها باسمه ما بين ١٠٦٩/ ١٠٧٠ و١٠٧٤/ ١٠٧٥، ودال له فيها الأمر بإجماع من القادة اللمتونيين في الصحراء.

كانت سجلماسة أصلًا تحت الحكم الشخصي لأبي بكر بن عمر وأسرته؛ إذ يضع جاك مينيه احتمال أن النقود التي ضربت بها باسم شخص بُعيد مغادرة أبي بكر بن عمر إلىٰ أغمات في سنوات الفتوحات الأولىٰ، ربما ضربت باسم أخ لأبي بكر أو ابنه[٣]. ومن الواضح بحسب إشارة ابن الأثير أن هذا الشخص هو أبو بكر بن إبراهيم بن عمر[٤]. وقد استمرّ ضرب هذه النقود عشر سنوات ما بين ١٠٥٨ و١٠٦٨ ثم حكمها إبراهيم الأسوَد بعده. ولكنه قرّر متابعة سلطة والده إلىٰ ما وراء سجلماسة، فخرج بالعسكر إلىٰ أغمات، التي كانت بمثابة عاصمة، وتجاوز عتبة الأطلس بالجموع اللمتونية[٥]. وهنا استعرضهم القائد مزدلي التلكاني الذي كان بيروقراطيًا واستراتيجيًا ذكيًا وصفه ابن عِذاري بأنه كان «حسن السياسة، صحيح المذهب، عارفًا بخدمة الملوك». وقد نجح بالفعل في إرجاعِ إبراهيم عندما وفّرَ له خيلًا ومالًا من عند يوسف بن تاشفين، فأقفل إلىٰ الصحراء إلىٰ غير رجعة[٦]. بعد عقود طويلة سيعيد مزدلي الضربة الدبلوماسية نفسها عندما

---

(١) ابن الأثير، ج٩ ص ٤٢٧.

(٢) أربعة أعوام بحسب الحفريات التي عثر عليها مينيه.

(3) Denise Jaques-Meunié. Le Maroc saharien: des origines à 1670(Librairie Klincksieck, 1982, 241, 243.

(٤) ابن الأثير، ج٩ ص ٤٧٢.

(٥) المختار بن حامدن، موسوعة حياة موريتانيا: التاريخ السياسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠، ص ٥٣؛ وأيضًا: ولد السالم، تاريخ موريتانيا: العناصر الأساسية، ص ٥٥، وأيضًا: ابن الأثير، ج ٩ ص ٤٢٧.

(٦) ابن عذاري، ج ٤ ص ٣٠.

تدخّل أيضًا لرأب الصدع بين خليفة يوسف بن تاشفين وابن أخيه الذي أراد الثورة عليه من فاس[١].

في الصحراء التي عاد إليها إبراهيم كان أبو بكر بن عامر قد بدأ عصرًا مستقلًا، إذ تباعدت الأواصر بين الصنهاجيين في الشمال والجنوب. وينسب بعض الدارسين للذاكرة الجماعية للصحراوين أنها اعتبرت عودة أبي بكر بن عامر بجيشه القادم من الشمال فتحًا للصحراء، وأنها رأت في عودته تأسيسًا لإمارة جديدة[٢]. وبطبيعة الحال، لا يمكن أخذُ هذه «الذاكرة» علىٰ علاتِها؛ ذلك أن المؤرِّخين والحفريين وجدوا أحيانًا تضاربًا بين التقاليد المحلية وبين الأحداث والحفريات عن المرابطين (مثلًا لم تعثر بعثة فارياس الكشفية في عام ١٩٦٧ علىٰ دليل علىٰ رباط عبد الله بن ياسين في جزيرة تيدرة، الذي تتحدّث عنه بعض التقاليد البيضانية). ولكن الروايات الصحراوية تتناقل عمومًا تحركات عسكرية لأبي بكر بن عامر في الصحراء فيما بعد إقفاله من الحراك المرابطي الكبير. وتورِدُ السرديات، التي دوّنها الشيخ محمد المامي (ت. ح ١٨٧٠) وابن حبت الغلاوي (ت ١٩٥٤)، تفاصيل فتوحات كبيرة قام بها أبو بكر مارًا من الشمال في الزمور وتيريس وآدرار إلىٰ الجنوب إلىٰ تگانت في مجتمعات السودان الأبعد[٣]. ويُقدِّمُ أحمد بن حبّت الغلاوي تفاصيل ما يبدو ملحمة مُرابطيّة، وإن كانت قصيرة السّرد، عن توسُّعِ الجيش المرابطي الصحراوي بقيادة أبي بكر بن عامر في المجال السوداني التكروري السونينكي، ولكن المسكون أيضًا من قبل عناصر صنهاجية، الممتدّ من منطقة تگانت فما جنوبها، فيقول:

> ولمّا اهتمَ أبو بكر بن عمر بالخروج إلىٰ بلاد التكرور التي حدّها من زمور إلىٰ تنبكت وإلىٰ البحر المحيط وما يصبُّ فيه من البحور المسمّاة بـ «الشناجطة» . . . قال فلمّا وصلَ الجيش إلىٰ «لحمادة» باتَ ولا ماء معه، فصارت فرسُ الولي عبد الرحمن بن أبي بكر تنبشُ الأرض بيدِها وتصهلُ فضربَ عبد الرحمن موضِع حافِرها بقوسه فتفجّرَ منه الماء، فمن ذلك سُمِيَ

(١) ابن أبي زرع، ص ١٠٣.

(٢) ولد السالم، تاريخ موريتانيا، ص ٥٥.

(٣) الحسين بن محنض، تاريخ موريتانيا القديم والوسيط، ص ١٣٩-١٤٠.

«الرّكاز» وسمّىٰ الماء بـ «الفرسية». ثم ارتحل -يعني الأمير أبا بكر بن عمر- ونزل بـ «المالح»، وهي مدينة عظيمة فيها أسوانك [السونينكىٰ] وإيفلان [الفُلاّن] وكثيرٌ من البربر وهي مسيرة يومين من ودان، فقاتلهُم رحمه الله تعالىٰ حتّىٰ ملكَها عنوة؛ ثم نزل «ودان» وفيه «تُرودو» و«أسوانك» وملكَهُ عنوةً أيضًا. ثمّ جهّزَ جيشًا إلىٰ «آبير» وفيه طوائف من الخلق فيهم أجناسٌ من السودان وغيرهم، وقاتلهم قتالًا شديدًا رحمه الله تعالىٰ حتّىٰ سالموه، وأسلموا كلّهم علىٰ يديه. ثمّ سارَ مع الباطن، الذي هو ساحل جبل آدرار يطوِّعُ أهله. وسار الجيشُ مع ظهر الجبل حتّىٰ التقىٰ الجمعان بـ «تنضشين» فوجدوا فيها ملوكًا كثيرة من «تردو» و«أسوانك» و«إيفلان» و«التكارير» [التكرور]. واشتدت الحرب حتّىٰ طردَهم للبحر ونزل سهوة الماء عند حباية. ولم يزل رَحِمَهُ اللهُ يُجالِدُهم حتّىٰ أسلموا كلّهم ما عدا «سرير»، فإنهم قطعوا البحر. ثم ارتحل إلىٰ بلاد «تگانت» وصادف أعلىٰ الجبل حتّىٰ نزل بالبطحاء التي تلي جانب الجبل الغربي التي هي بطحاء السلاطين، وعلىٰ الجبل ملوك «نار» فحاصروه حتّىٰ مات رئيسُهم طآدَر فوق الحقف الذي فوق البطحاء، فانهزموا وطردَهم جميعًا إلىٰ البحر رحمه الله تعالىٰ[1].

ورغم أن الفتوحات المرابطية للمجال التكروري بقيادة أبي بكر بن عامر وأولادِه هي سردّية صحراوية متكرِّرة، إلاّ أنّ التاريخ العالمي لا يُسجِّلُها، وخصوصًا بهذه الملحمية، رغم أن اسم «عبد الرحمن بن أبو بكر»، المذكور في هذه الفتوحات هو اسمٌ علِقَ بذاكرة الصحراء وانتسبَتْ له -بحسب المختار بن حامد- قبيلة تركز الموريتانيّة[2]. إلاّ أن المعطيات التاريخية اللاحقة لا تنفي الوجود السوداني من منطقة وسط البلاد قبل القرنين السادس عشر والثامن عشر. ويبدو أن هذا لا يمنع -بغضِّ النظر عن بعض الميل الملحمي لسرد التاريخ- قصة

(١) أحمد بن حبت الغلاوي، تاريخ ابن حبت، مخطوط بحوزتي، ص ٢. كما استفدتُ من فكِّ طلاسم الفقرة من استنساخ الدكتور يحيىٰ بن البراء لها في: يحيىٰ بن البراء، ملكيّة الأرض في موريتانيا: أبعادُها الاجتماعيّة والسياسيّة، دراسة في النصوص الفقهية والوقائع، معهد الدِّراسات الإفريقيّة، الرباط، ١٩٩٩، ص ٤٧-٥٠.

(٢) نفسه، ص ٤٧، هامش ص ١٤٧.

تكثيف الصولة العسكرية المرابطية جنوبًا بعد انقلاب يوسف بن تاشفين شمالًا؛ بل وتبدو أحيانًا فرضية معقولة؛ وربما نجمت هذه «الفتوحات»، أو ربما الغزوات، في الجنوب من انقطاع الاهتمام الاستيراتيجي بالشمال؛ فزاد الصحراويون -بحسب روايات أخرىٰ- من هجماتهم وفتوحاتهم ليس فقط في وسط الصحراء (تكّانت والحوضين)، بل فيما وراءها؛ فسيطروا علىٰ االتجمعات السودانية في حوض نهر السنغال ونهر النيجر، وأصبح لمتونة سادة المكان في «جني» و«زانفارا» و«زغزغ» و«وانغارا». ولم يتوقّف نفوذهم إلا عند غوغو، التي بقيت مستقلة كلية تحت سيطرة السونغاي[1]. وربما كانت الجماعات المسوفية المشبعة بالتقاليد المرابطية هي من قام بهذه «السيطرة»، وذلك في إطار اهتمامِها بالطريق التجاري الرابط بين غاو وورقلة (ورقلان) والأندلس. وتظهر أسماء هولاء المرابطين الافتراضيين الذين ملكوا حوض النيجر في تاريخ ملوك الغاو، حيث كان أحد ملوكهم هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ١١٠٠)[2].

وفي العشرينيات من القرن العشرين كانت الروايات الشفهية لدىٰ قبيلة أولاد

---

(1) Lechatelier, 45.

إن موضوع السيطرة الصنهاجية علىٰ المناطق النيجيرية والمالية لهو موضوع نقاش أكاديمي محتد، وقد دخل فيه هوينيك في نقاش مع ديرك لانج، الذي اعتقد أن البربر الذين سيطروا في أواخر القرن الثاني عشر هم بربر محليون أسقطوا مملكة كانتا .

Dierk Lange.

Les Rois de Gao-Sané et les Almoravides.The Journal of African History, Vol. 32, No. 2(1991), pp. 251-275

بينما يعتقد هوينيك أنهم صنهاجيون مسوفيون سيطروا في إطار الأيديولوجيا المرابطية من أجل التحكم في المسالك القوافلية في بين غاو وورقلة والأندلس.

Hunwick, 'Gao and the Almoravids:

A hypothesis', in B. Swartz et R. Dumett eds., *West African Culture Dynamics: Archeological Perspective* (Le Hague, I980), 4I3-430.

وأيضًا :

Gao and the Almoravids Revisited: Ethnicity, Political Change and the Limits of Interpretation. The Journal of African History, Vol. 35, No. 2(1994), pp. 251-273.

(2) J. Hunwick, 'Gao and the Almoravids: A hypothesis', in B. Swartz et R. Dumett (eds.), *West African Culture Dynamics* (Le Hague, I980), 4I3-430.

أبييري قد خزّنت قصةً عن تجمع القبائل البيضانية الأولىٰ ومسيرها مع أبي بكر بن عمر في حملته ضدّ السكان السود. وكانت هذه التقاليد تحيل إلىٰ قبائل لمتونة، تجكانت، إيدوعيش، تندغة، إيدولحاج، إيجيجبة، وأولاد ديمان[1]. ويُبالغ ابن حبت قليلًا في تعداد القبائل التي يقولُ إنّها خرجت مع أبي بكر بن عامر من بلاد السوس إلىٰ بلاد التكرور، إذْ يذكرُ فيها «تشمش وتاشدبيت وأبناء أبي السباع واكمليلن وبارالتيل واجيجبَ وإدكجملّ وإديلك والفرقة التي لإصلاح المال. . .بنو عطية وبنو إديشلٍّ والبُرَد وبنو مشظوف واسكيات وبنو شل ولبحيحات وتيزكَ وزيلوف ولبيرات وآرويجات وبنو لادم وبنو تابر وبنو الأشظف وتمز وبازوك والفاقلة ولكَواطيط وبنو تيدرارين وتوابير ولحجرات»[2]. غير أنه من الواضح أن هذه القبائل لم تتكوّن في ذلك الوقت المبكر بأسمائها تلك، كما أن بعضَها لم يقدم للمجال الموريتاني قبل القرن التاسع عشر، وإن كان ليس مستبعدًا تحلق أصول بعضها الصنهاجية حول القائد المرابطي.

من ناحية أخرىٰ، دأبت المصادر الأوروبية في القرن التاسع عشر علىٰ تقصِّي توسُّع البيضان في الحركة المرابطية. وكانت الروايات الصحراوية التي سجلّها الفرنسيون في هذه الفترة تحيل إلىٰ أن أبا بكر بن عامر قد دمّر كصر تكَبة البعيد في جنوب البلاد، الذي كان يسكنه السود. ولم يتم إعادة بنائه إلا لاحقًا عندما قدم إليه الجكنيون[3]. حاصل الأمر أن الروايات الشفهية -سواء في الصحراء أو في الغاو- تشترك مع التصوّر الغربي القديم في إحالات تراثية وميثولوجية عن الماضي المرابطي التوسعي في السودان وحوض نهر السنغال. بل ويبدو من أيديولوجيا بعض المجموعات العلمية البيضانية ومن فقهِها في القرن التاسع عشر، كما عبّر عنه العالم التندغي محمذن فال بن متالي (ت ١٨٧٠) وتلميذه المختار بن ألما اليدالي (ت ١٨٨٩) ومحمد بن أحمد الرباني التندغي (ت ١٩١٦)، أنّها اعتبرت أن الأراضي الممتدة من غرب آدرار في منطقة «آكشار» حتىٰ الأراضي

(1) Dr. J. A. Lucas. Bafours, p. 153-154

(٢) ابن حبت، تاريخ ابن حبت، ص ١.

(3) J. Ancelle, p.202.

الجنوبية في «الترارزة» و«كرمسين»، أراضي فُتِحت عنوة من المجموعات السُّكانيّة السودانيّة التي عرفوها باسم «**إيدوفال**». وقد رتّبَ هؤلاء علىٰ هذا موقفًا فقهيًا، مفاده أن ملكيّة الأرضِ في هذه البقاع كانت ملكيّة عامة للمسلمين[١].

❁ ❁ ❁

علىٰ أن هذه الوِجهة الجنوبية لمرابطي الصحراء لا تعني نهاية كلٍّ شأنها مع المغرب، ولا يعني تباعد أواصر لمتونة الجنوب بلمتونة الشمال نهاية علاقة الصحراء بالمغرب والأندلس؛ بل إن هذه العلاقات ازدادت من خلال العلاقات القوافلية. فلقد أعاد المرابطون ضبط سير القوافل، عكس ما تذهب إليه بعض المصادر التاريخية من أنهم دمّروا هذه القوافل. وقد شهدت هذه الفترة بناء أو تفعيل مدن بدأت تحلُّ بِها القوافل التجارية، وهي «أزوكَي» و«تابلبالت» و«زاغورة» و«تامدلت»، التي ربما بنوها بأكملها أو طوّروها من تأسيس الأدارسة الابتدائي لها. ولم تكن هذه المدن مجرد محطات تجارية وسوقية دومًا، بل كانت تُستخدم استخدامات عسكرية واضحة فقد جَعل منها المرابطون مراكز عسكرية كما كان حال أغمات وأزوكَي، (التي أشار إليها القاضي عياض باسم «أزكيد»، وعرفها البكري باسم «أركي»، وعرفها اليعقوبي باسم «كوكدم»)، التي بنوها علىٰ شكل **القصبة**، التي كانت نمطًا من التحصينات في تلك الفترة في الشمال في إسبانيا وفي الجنوب في تمبكتو، يتميّزُ بأنه مبني علىٰ شكل رباعي ومحصن وبه باب للنجاة عُرف باسم «**باب الغدر**»[٢]. (بل إن التقاليد الشفاهية اللاحقة التي عبّرَ عنها القاضي سيدي محمد ولد داداه، عرفت أن أزوكَي كانت عاصمة للبافور الناطقين بالأزيارية وكانت تُعرف بـ**مدينة الكلاب**؛ إذ كان أهلها مجتمعًا محاربًا، رجالًا ونساءً. وبحسب الإرث الشعبي فقد هاجمتهم قوات أبي بكر بن عامر، مدعومًا بصلوات الإمام الحضرمي المرادي، وتمكّن من الانتصار عليهم وقهرهم في معركة كبيرة استطاعت فيها النسوة البافوريات القضاء علىٰ الإمام الحضرمي

(١) يحيىٰ بن البراء، ملكية الأرض، ص ٥٣-٥٥.

(2) Abdel Wedoud Ould Cheikh and Bernard Saison. "Vie(s) et mort(s) de al-Imam al-Hadrami", pp. 52-53.

بينما كان يصلِّي علىٰ الكثيب في عام ١٠٩٥)[١].

وعلىٰ العموم، فقد ساهمت هذه المدن التجارية والفندقية أساسًا، وإن كانت مُعسكرة أحيانًا، في ربط اقتصاد الجنوب المغربي بالشمال السوداني وفي تسريع تجارة الذهب الحيوية بالنسبة إلىٰ الشمال، وهي علاقات استمرّت بسبب تجارة المغرب والسودان من خلال تجار القوافل. ومن الواضح أنه -برغم تراجع كُمْبِي صالح، حاضرة غانا الأهم في القرن العاشر والحادي عشر- فإن المرابطين، والطريق القوافلي عمومًا بقي مستفيدًا من الذهب السوداني، ولكن هذه المرة ليس من خلال الماندينغ وحدهم، وهم المُقيمون أساسًا بشرق السودان الشمالي؛ وإنما من خلال التكرور، المقيمين بوسطِه وبغربه، الذين تحوّلت مدينتهم، غيارو، إلىٰ مدينة مهمة لتجارة الذهب القادم من فاليم[٢]. ودليلًا علىٰ ترابط المصالح يمكن الانتباه إلىٰ إحالة التادلي لقصة تاجر توفي في بلاد السودان وترك ممتلكاتٍ تمّ بيعها ونقلُها إلىٰ ورثته في فاس ومن بينهم أحد علماء صنهاجة وهو أبو الربيع التلمساني، المتوفىٰ عام ١١٧٩[٣]. كما استمرّت أيضًا هذه العلاقات علىٰ مستوىٰ أعيان السودان والمغرب، فيذكر صاحب **كتاب الاستبصار** رسالة من أمير غانة إلىٰ يوسف بن تاشفين خاطبه فيها بـ**أمير أغمات**، مبلغ التجارة السودانية-الصحراوية[٤]. ويذكر الحموي أن المرابطين كانوا يُجِلُّون أمراء السودان، وقد زار أمير زافون، وهو في طريقه إلىٰ الحج، أمير مراكش اللمتوني، الذي ربما كان يوسف بن تاشفين أو ابنه علي، والذي استقبله في مراكش بحفاوة ودخل الأمير السوداني «قصر أمير المسلمين راكبًا، وأميرُ المسلمين راجلٌ بين يديه»[٥].

---

(1) Lucas, 153-154.

(2) Ian Blanchard, *Mining, Mettallurgy in the Middle Ages: Asiatic Supermacy* (Stutgart: Steiner, 2001), Vol 1, 143.

(٣) التادلي، ص ٢٨٢.

(٤) الاستبصار، ص ٢١٩.

(٥) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٣، ج ٣ ص ١٢٧.

وبطبيعة الحال، فلم يخلُ الطريق الصحراوي ولا علاقات مغاربة الشمال بسودان الجنوب من توتّرات، وخصوصًا في أواخر القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر. فنعرِفُ أن قُطاع الطرق كانوا يكمنون للقوافل وللمسافرين بين سجلماسة وأوداغست في الصحراء وينهبونَها. ويبدو أن قوات الأمير الموحِّدي علىٰ سِجلماسة، سليمان بن عبد الله (ت. ح. ١٢٠٨)، حفيد عبد المؤمن، رجل الدّولة الموحدية وأهمّ أمرائها، قد نجحت في القيام بعملية ضدّ بعضِهم وقتَلتهم. وقد دخل شاهِدٌ عيان علىٰ الأمير الموحّدي فوجده طارِحًا رؤوسَهم علىٰ النطع[١]. كما يبدو أن علاقاتِ هذا مع ملوك السودان لم تكن علىٰ أحسنِها. ويبدو أن هؤلاء أعاقوا سير التجارة نتيجة لهذا واحتجَزوا بعض التجار المغاربة. وقد دوّن المقّري، صاحب **نفح الطيب**، رسالة دبلوماسية جوابية من سليمان بن عبد الله يُطالِبُ فيها الملك السوداني بأوداغست أن يُحافِظ علىٰ التجارة قائلًا: «وقد بلغنا احتِباسُ مساكين التجار ومنعهم من التصرّف فيما هم بصدده، وتردّد الجلاّبة إلىٰ البلد مفيد لسُكّانِها ومُعينٌ علىٰ التمكّن علىٰ استيطانِها، ولو شِئنا لاحتبَسنا من في جهاتِنا من أهلِ تلك الناحية ولكنّا لا نستصوبُ فِعله، ولا ينبغي لنا أن ننهىٰ عن خلق ونأتيَ مثله، والسلام»[٢]. ولا نعرِفُ هل جاءت قصة إهداء ملوك السودان لفيل له بعد هذا الخلاف أم قبله. ومهما يكن من أمرٍ، فإنّه رفض قبول الهدية بحجة أنه: «نحن لا نريد أن نكون من أصحاب الفيل»[٣].

وعلىٰ العموم، فمن الواضح أن هذا التواصل بين السودان والمغرب تمّ بفضل الدور الرابط الذي قام به الطريق الصحراوي. وفي الحقيقة، فإن هذا الطريق عُرِفَ أيضًا بـ**الطريق اللمتوني**، الذي في الحقيقة تقاطع مع الطريق القديم للعربات. وقد ذهب كورنفان إلىٰ الاعتقاد أن الطريق ساهم أيضًا في ازدهار السودان الإفريقي الذي تأسلم والتحق بالنظام التواصلي المرابطي. وكدليل علىٰ

(١) الشيخ أحمد بن محمد المقّري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٦٨، ج٣ ص ١٠٧.

(٢) نفسه، ص ١٠٥.

(٣) نفسه، ص ١٠٣.

ترابط هذه التجارة من السودان إلىٰ الأندلس، مرورًا بالصحراء، فإن العملة المرابطية، المسكوكة من الذهب الغاني، أصبحت معروفة في أوروبا تحت اسم **المرابطيات** (Marabotins)[١]، وكانت تُضرب في دور السكة المرابطية، وخصوصًا في سِجلماسة، التي أضحت مرابطية أو شبه مستقلة في هذه الفترة كما يوثّقُ جاك مينيه[٢]، وفي مراكش، التي سكّ بها يوسف بن تاشفين الدينار الذهبي باسم أبي بكر بن عمر قبل انقلابه عليه[٣]. ولكي تسكّ هذه الدُّور السجلماسية والمراكشية الدنانير، فإنها كانت تحتاج إلىٰ الذهب السوداني العابر عبر الصحراء.

وبدوره ساهم هذا الذهب في التطوّر التاريخي للمغرب[٤]؛ بل وفي التاريخ الاقتصادي، وخصوصًا النقدي، الأوروبي؛ فمثلًا في ستراسبورغ القرون الوسطىٰ، شمال غرب فرنسا، كان المرابون والمتاجرون في النقد والسكّاكون يحتكِرون العملات الذهبية، المرابطيّة تسويقًا وسكاً، والسودانيّة أصلًا. وفي القرن الثاني عشر، وتحديدًا في عام ١١٧٣ بدأ الإسبان في طليطلة في سكّ عملة مرابطية سُميّت بالمرابطية الألفونسية *(le morabeti alfonsi)* نسبة إلىٰ ضارِبِها، ألفونسو الثامن[٥]. وتظهر هذه العملات، الألفونسية والمرابطية، دومًا في التاريخ الأوروبي. ففي القرن الثاني عشر مثلًا قرّرت السلطة في ستراسبورغ، التي كانت تعيش صراعًا بين التجار ورجال الدين، فرض قانون يلزم تجار النقد والسكاكين بدفع نصف أونصة من الذهب للأسقف المحلي وخمسة دنانير مرابطية من الذهب الخالص[٦]. وقد أصبحت الدنانير المرابطية عملة أوروبا الغربية الأكثر قيمة؛ ففي عام ١٢١٣ وصلت قيمة ستين مرابطية من الذهب إلىٰ مارك في إسبانيا. وفي

---

(1) Cornevin. Histoire d'afrique, 322.

(2) Jaques-Meunié. Le Maroc saharien: des origines à 1670. Librairie Klincksieck, 1982, ص 242و 247–246.

(٣) ابن عذاري، ج ٤ ص ٢٢.

(4) Cornevin, *Histoire d'afrique,* 322

(5) D. Jacques-Meunié, Le Maroc Saharien, 409-410.

(6) Marc Léopold Benjamin Bloch, *Land and Work in Mediaeval Europe: Selected Paper*. California: University of California Press, 1969, P. 225.

القرن الثاني عشر مثلًا فَصَلَ هنري الثاني، ملك إنجلترا، في خلافٍ بين ألفونسو القشتالي وسانشو ملك نافار، وقضىٰ بأن يدفع الأول للثاني ٣٠٠٠ من المرابطيات، التي كانت أيضًا تعني الغنائم من المرابطين[١]. وفي وقتٍ متأخر في عام ١٤٤٩ كان ملك قشتالة، خوان الثاني، يمنح العملة المرابطية المعروفة لدىٰ البرتغال بـ Maravedi لدوق مدينة سيدونية ليُشجِّعه علىٰ احتلال السواحل المغربية، في البلاد المتخيّلِ أنها تمور بالثروة المرابطية[٢]. وفي القرون اللاحقة سنرىٰ حضور المرابطيات دائمًا في الحياة الأوروبية والإسبانية، حيث رافقت **التروبادور**، الشعراء الجوالين في غرب أوروبا، دومًا في رحلاتهم كما تسفر عن ذلك أدبياتهم.

وما كان هذا الترابط قادرًا علىٰ الاستمرار من دون وحدة اقتصادية بين السودان والصحراء والمغرب والأندلس، بل إن شعوبًا وجماعات ازدهرت بفعل هذا الترابط؛ حيث يتحّدث الإدريسي عن عرب الهوارة، الذين كانوا بربرًا بحسبه، باعتبارِهم متاجرين مزدهرين في هذه العلاقات[٣]. وحسب ما دلّت عليه الحفريات، فإن المجتمعات التي عاشت بين الصحراء والمغرب قد ازدهرت اقتصاديا كثيرًا في هذه الفترة؛ فنمت مدينة شفشاوة في غرب مراكش، واستطاع ساكنتها بناء منازل فاخرة ومزخرفة بالجص وقصارة الرش[٤].

وبالإضافة إلىٰ الترابط الاقتصادي والاجتماعي، فإن الصحراء بقيت مخزونًا نفسيًا وثقافيًا بالنسبة إلىٰ الصنهاجيين الذين توطّنوا في الشمال، والذين بقوا يعتبرون الصحراء امتدادًا لهم. ويدلِلُ دارسٌ موريتاني علىٰ هذا بالإشارة إلىٰ فتوىٰ ابن رشد الحفيد الذي أفتىٰ باستخلاص الهدايا من الأموال المختلطة لأمير

---

(1) Monthly magazine and British register, Volume 40. Vol II (1815) London, p. 139.

(٢) انظر مثلًا: عبد الهادي التازي، الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب (الرباط: دار المعرفة، ٢٠٠١)، الجزء الثاني، ص ٢٧١.

(3) I. Hrebkand J. Davisse. The Almoravids, 363.

هؤلاء الهوارة هم بربر بحسب ابن الفقيه الهمداني الذي تحدّث عن سكنهم جنوب المغرب. ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٨٣.

(4) I. Hrebkand J. Davisse. The Almoravids, 363.

المسلمين ناصر الدين[١]. وبقيت الصحراء حديقة خلفية وإطارًا للأمراء الصحراويين في المغرب، فكانت مثلًا متخيّلًا وأصلًا ومكان نفيٍ؛ فعندما ثارَ الأمير أبو بكر بن يحيىٰ بن يوسف في فاس، فإن علي بن يوسف نفاه إلىٰ الصحراء حيث أقام بها وقتًا[٢]. ويذهب دارسون إلىٰ أن السلطة في مراكش اعتبرت صنهاجة الصحراء ولاة تابعين لمراكش[٣]. وما نعرفه في هذا الإطار من صاحِب **الحلل الموشيّة** هو أن يوسف بن تاشفين بعثَ، عندما انتصر في تلمسان، برسالة ظفر إلىٰ قبائل الصحراء من مسوفة وجدالة ولمتونة يبشّرهم بالنصر ويدعوهم للقدوم فقدِمَ إليه الكثير منهم[٤]. وربما كان الأمر يتعلّقُ بطلب المدد من مقاتلي الصحراء أو كان نوعًا من الحنين وزفِّ البشارة إلىٰ «الوطن الأم». وكانت الصحراء مأوىٰ أيضًا، وفي أحايين تمظهر هذا في علاقات اجتماعية وزيجات. فقد فرّ والد بني غانية في إطار عدم تفاهم مع السلطة المرابطية إلىٰ الصحراء، فعاش بها سنوات إلىٰ أن ردّه يوسف بن تاشفين وزوّجه من صحراوية اسمها غانية، التي سيشتهِرُ أولادها الثوار بالنسبة إليها. وكان عامل المرابطين علىٰ فاس في آخر أيامهم ابنًا لامرأة من الصحراء. واشتهر باسم ابن الصحراوية. وسيقود نضالًا ضد الموحدين كما سنرىٰ.

❁ ❁ ❁

معلوماتنا عن الصحراء في هذه الفترة شحيحة، ولكننا نتساءل عن مدىٰ تأثُّرها بسقوط المرابطين في الشمال. فمؤخّرًا اقترحَ بعضُ الدارسين الحديثين كرونالد مَسْيَّيه أن نموذجَ ابن خلدون الذي تصعدُ فيه حركة بدوية وتنصهر فيه في ديناميكيات المدانة لم ينطبق علىٰ المرابطين، الذين ظلّوا بدوًا ولم يتحوّلوا إلىٰ بنية مدنية؛ وأن سبب هزيمتهم عادَ إلىٰ أنّهم ظلّوا مرتبطين بالاقتصاد الرعوي وبالحياة الصحراوية، وليس أنّهم تخلّوا عنها عندما فتحوا المُدن، كما يقترِحُ

(١) ولد السالم، تاريخ موريتانيا: العناصر الأساسية، ص ٥٩-٦٠.

(٢) ابن أبي زرع، ص ١٠٣.

(٣) حماه الله ولد السالم، مقدمة، في: الشيخ موسىٰ كمرا، تاريخ قبائل البيضان: عرب الصحراء الكبرىٰ، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان، ٢٠٠٩، ص ٣٧-٣٨.

(٤) الحلل الموشية، ص ٣٣.

نموذج ابن خلدون؛ وأنهم -نتيجة لهذا- فشلوا في التحوّل إلىٰ سلالة مدنية ضريبية ذات مدٍّ شعبي[١]. ويفتحُ لنا هذا التحليل -بغضّ النظر عن صوابه- التساؤل عن عودة المرابطين إلىٰ الصحراء، محلِّ ارتباطِهم الأصلي، الذي جزِم مَسْيَّيه أنهم لم يستطيعوا التخلي عنه. والواقع أن ليون الإفريقي يقول لنا إن الموحِّدين طَردوا كثيرًا من المرابطين من المغرب والأندلس إلىٰ الصحراء[٢]. فبعد أن تبيّنت سيطرة الموحّدين في عام ١١٤٧ تراجعت قوات المرابطين المتشكِّلة من النواة اللمتونية إلىٰ العاصمة مراكش، حيث تحصّن بها أشياخهم وقادتهم؛ ولكن الحصار الموحدي للمدينة كان خانقًا واستمرّ مدة ستة أشهر أحكمت فيها المجاعة والعطش والوهن من المتحصِّنين. وكان الخيار الوحيد المتاح، هو الهروب إلىٰ الأرض الأمّ في الصحراء، خصوصًا أن الموحِّدين كانوا قساةً في حصارهم للمناطق الصنهاجيّة التي قتلوا بها عشرات الآلاف كما حدث في تلمسان وحدها مثلًا[٣]. وبدأت مؤشرات الاستعداد لخيار الفرار في صفوف النبلاء اللمتونيين عندما واجهوا جيش الموحِّدين في وهران، فاجتمعوا بعد هزيمة أوليّة وتحلّقوا بمقاتليهم حول الأمير تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين. ولكنهم سرعان ما تضعضعوا حتّىٰ قبل بدء المعركة وانخذلوا؛ فَفَرَّ زعيم منهم هو عبد الله بن ونكَي إلىٰ المغرب الأقصىٰ في الجنوب، وفرّ الشيخ أنجمار، تاركين أمير المرابطين ينهزم ويلقىٰ حتفه علىٰ شاطئ البحر[٤]. ولا نعرفُ علىٰ وجه الدِّقة مترتِّبات هذا علىٰ تاريخ الصّحراء، وإن كان البعض يُخمّن أن أنجمار ورهطه واصلوا الهروب إلىٰ الصحراء حيث أسّسوا بها قرية «تِن جمارة»، وعرفهم سكان الصحراء بـ «**انجمارة**»[٥].

---

(1) Ronald Messier, "Re-thinking the Almoravids, re-thinking Ibn Khaldun," *The Journal of North African Studies*, vol 6, 2006, 59-80.

(٢) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ١٩٨٣، ص ٣٧.

(٣) الحلل الموشية، ص ١٣٥.

(٤) أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنىٰ بالبيذق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١، ص ٥٩.

(٥) ولد السالم، تاريخ موريتانيا، ص ٦٠.

وفي صفوف الجداليين حدث هروب مماثل عندما نكصت القبيلة التي حاربت مع المرابطين وساهمت في فتوحاتهم[١] إلىٰ حوض آرغين الذي كان يقع في مجالها قبل ظهور المرابطين[٢]. وربما وجد كثير من الهاربين فرصة في استعمار الأراضي الجنوبية والإقامة فيها بعيدًا عن اضطهاد الغالبين. ففي البداية هرب زعماء المرابطين ونواتهم الصنهاجية إلىٰ جنوب المغرب والجزائر الحاليتين، حيث نزل أشراف اللمتونيين في واحات توات واستوطنوها وبنوا بها قصر تيلوت[٣]. ويعتقد بعض الباحثين أن هجرات إلىٰ الصحراء نبعت من هذا الاستيطان[٤]. وربما حدثت الهجرات لاحقًا بعد الضرائب القاسية التي فرضها الموحدون علىٰ الأخصاص التواتية والتلمسانية، التي تمت تسمية توات عليها[٥].

وبطبيعة الحال، فإنه سيكون من الميكانيكية أن نعتقد أن المرابطين عادوا كُلية، أو عادوا بإرادتِهم للصحراء بعد هزيمتهم؛ فهم قد أصبحوا قبل عقود طويلة جزءًا من الحياة المغربية، وربما لم يكن تقهقر بعض قادتهم جنوبًا بغرض الاستيطان بقدرِ ما كان للملمة الصفوف، خصوصًا وأن الموحدين ربما حاولوا السيطرة علىٰ الصحراء[٦]. إلاّ أنّنا نلاحظ عمومًا تدفقًا سكانيًا صنهاجيًا إلىٰ الجنوب، بسبب حالة الحرب الناجمة من توطيد مُلك وسلطة الموحِّدين. فقد انتظم الجداليون في رباطات كـ «رباط مسح» في السوس، واستطاعوا منه

---

(١) علىٰ عكس ما ذهب إليه القاضي عياض كما يُبيِّن نوريس مستندًا إلىٰ ابن خلدون وابن كثير وابن عذاري وابن أبي زرع.

H. T. Norris. *The Arab Conquest of Western Sahara*. London: Stacey International, 1986. p. 171-172.

(٢) هنالك خلاف حول مكان الجبل اللامع الذي رجع إليه الجداليون بعد رجوعهم إلىٰ الجنوب؛ فيعتقد هوبكينز ولفتزيون أنه في رأس بوجدور، بينما يرجح لفيسكي أنه في الجنوب إلىٰ آرغين، ويعتقد المختار بن حامد أن الجبل المضيء في الجبل اللامع يقع في الساقية الحمراء حيث كانت تنحدر الروافد النهرية الخمسة في المنطقة الممتدة من الحمادة إلىٰ وادي درعة في منطقة: رب آكَواديم.

(٣) ولد السالم، «ملامح من تاريخ قبائل البيضان»، في: موسىٰ كمرا، تاريخ قبائل البيضان، ص ٣٩-٤٠.

(٤) نفسه، ص ٤٠.

(٥) محمد الصالح حوتية، توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة (الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي): دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٧، ج ١ ص ٣٧-٣٨.

(6) Le Chatelier, 45.

استقطاب الفلول الصنهاجية بعد هزيمة اللمتونيين في عام ١١٤٧. واستطاع هذا الرباط جمع ما قُدِّرَ بـ ٦٠٠٠٠ مقاتل من المشاة، فالتحقوا بالثورة التي قام بها رجل في السوس هو محمد بن عبد الله بن هود، الذي أُطلِق عليه لقب «الهادي» عندما التحق به الآلاف من الثوار وقطاع الطرق ومن تقطّعت بهم الأسباب في وادي درعة وسجلماسة. وعندما استخدم الموحدون القائد المسوفي الصنهاجي، يحيىٰ أنجمار، الذي انقلب لصالحهم، فإن الجداليين ورفاقهم نجحوا في صدِّه؛ ولذا جهّز الموحِّدون جَيشا قويًا بقيادة الشيخ أبي حفص عمر، الذي سبق وأن هزم جيشًا من جزولة كان يقاوم الموحدين. ويبدو أن سمعة القائد الموحدي كانت مهيبة؛ لذا ما إن اقترب من قوات الهادي حتىٰ هربت وانخذل أنصاره، فيما انهزم من بقي معه في معركة كبيرة في عام ١١٤١. ومرة أخرىٰ، هرب المنهزمون إلىٰ عمق الصحراء[١].

وعندما دخل الموحدون مراكش، فإنهم قتلوا الكثيرين فيها وباعوا الصنهاجين عبيدًا وإماءً وغنموا كنوزهم النفيسة[٢]. ويذهب بعض الباحثين والكُتّاب -ولو أنّه من الصّعب توطيد هذا في ظلّ الوثائق القائمة وبسبب الطابع اللاتاريخي لهذا التحليل- إلىٰ القول بهروب العناصر المسوفية اللمتونية من توات ونواحيها إلىٰ الصحراء، وأنها أسّست مجموعتيْ «تندغة» و«تجكانت» بقرية «تنيگي»[٣]. كما رأىٰ -ربما بناءً علىٰ افتراضات لسانية لا تدعمها الوثائق- أن ملحمة بني غانية الصنهاجيين ضد الموحِّدين في الشمال المغربي والجزائري والأندلسي انتهت بوصول بني غانية إلىٰ الصحراء وتأسيسهم الأصول القبلية لـ «التوابير» و«أولاد مزوك»[٤]. وذهب بعض المؤرخين إلىٰ إثارة احتمال أن يكون اسم بني غانية ما زال باقيًا في القبائل المنحدرة من لمتونة كـ «إيديشلي»[٥]. بينما يذهب البعض الآخر إلىٰ إضافة أصول معيّنة في قبائل لمتونة وإيديبوسات وتاشدبيت والمحافيظ

---

(1) Norris. *The Arab Conquest*, 172.

(٢) الحلل الموشية، ص ١٤٣-١٤٤.

(٣) ولد السالم، تاريخ موريتانيا، ص ٦٢.

(٤) نفسه، ص ٦٨.

(٥) نفسه، ص ٧١.

وأولاد سالم المعقليين وعناصر من تشمشة، بل وربما الركاكنة (تندغة) والأكَواط (بخواكَة)[١]. وإضافة إلىٰ تأثير أسطورة الأب المشترك والحدث المُؤسِّس ولا تاريخية القبائل في هذه الروايات، فإنها تتأثّر أيضًا بوجود فراغ وثائقي أو بغياب تدليل راجِح يسمح بتوطيدها.

علىٰ أن هذا الفراغ الوثائقي المتزامن مع حركة إزاحة اجتماعية في جنوب المغرب يسمح لنا بالتكهّن أو التساؤل عن إمكانية هجرات ذات أثر اجتماعي من المغرب إلىٰ الصحراء؛ لأن مجموعات من الصنهاجيين في الصحراء من قبائل السهول لم تقبل كلية بسلطة الموحدين. وربما كان من الصعب علىٰ الصنهاجيين من مسوفة ولمتونة -الذين بدأوا الآن في التفرُّع في مجتمات صغيرة- قبول العودة إلىٰ حياة التقشُّف والحرمان أو حتىٰ التخلي عن هويتهم كطبقة مُحاربة ذات ريْع. وهكذا بدأت ثوراتهم في الصحراء ضد الموحدين. وثارت أولًا، وعمومًا، قبائل السهول، فيما أذعنت قبائل الجبال للأمر الواقع، وإن بقيَت عصيّة منيعة. وكان من أسباب ثورة هؤلاء عدم رضاهم عن الموقف الموحدي المعادي للمالكية؛ لذا انتظموا في ثورة كبيرة ضدهم[٢]. وقد عرفت هذه الثورة بـ**ثورة ابن الصحراوية** الذي كان من أجسر الأمراء اللمتونيين وأكثرهم قدرة علىٰ تأطير انتفاضة مرابطية قوية، فقد كان ابنًا لأبي بكر بن يوسف بن تاشفين وكان أميرًا بفاس التي قاوم بها الموحدِّين مدة تسعة أشهر ضربوا عليه فيها حصارًا منيعًا وخانِقًا[٣]. ومن الواضح أن طموحه لم يكن مجرد الانتصار للمالكية المهزومة، بل استطاع لاحقًا التفرُّدَ ببستة التي شرَعَ فيها في ضرب النقود باسمه. وقد ردّت قوات الموحدين بعنف واستطاعت قمع الثورة، فهربت قواته إلىٰ الصحراء.

ولم تكن انتفاضة هذا المقاتل الحرون غير انتفاضة صنهاجية من بين عشرات توالَتْ من جنوب المغرب الذي كان يسكنه الصنهاجيون في تلك الفترة. وقد عدّد مؤرخ الموحِّدين، أبو بكر البيذق (توفي فيما بعد ١١٤٦) عشرات الانتفاضات

---

(١) الحسين بن محنض، تاريخ موريتانيا القديم والوسيط، ص ١٥٦-١٥٧.

(2) Roger Le Tourneau, *The Almohad Movement in North Africa in the Twelve and Thirteen Centuries*. Translated from French. Princeton:Priceton University Press, 1969, p. 53-54.

(٣) أبو نصر، ص ١٠٧.

والثورات ضد الموحِّدين التي طالت الصحراء والواحات المغربية الجزائرية من شرقها إلىٰ غربها وتغلغلت إلىٰ الوسط أحيانًا، فثار العرب في الشرق الصحراوي وتمكّنوا من هزيمة الموحدين في سطيف[١]. ولكن الموحدين هزموا ثورة في بجاية في عام ١١٥٢. وعندما ثار الجزوليون، حلفاء الصنهاجيين، بعد استتباب أمر الموحِّدين وذلك بقيادة أمير يدعىٰ أبا بكر بن عمر في عام ١١٥٨، فإن الموحِّدين استطاعوا إجهاض ثورته وقتله؛ كما ثار صاحب لمطة نول نفسه، محمدأهوكُار، قبل أن ينجح الموحِّدون في قتله[٢].

وفي النهاية، فقد نجح الموحِّدون في قمع كل الانتفاضات أو تحجيم تلك القوية منها واحتوائها. ولم يحدث هذا من دون قمع عنيف؛ فيذكر البيذق في كتابه التمجيدي كيف كان الموحِّدون يباشرون بقتل المئات من الأعيان في كل مدينة كبيرة، مرسلين «**الجرائد**» التي تتضمّن أوامر بقتل الأعيان الذين وصفهم بـ «الثائرين المنافقين». وقد وصل عدد المقتولين إلىٰ ٣٢٧٠٠ شخص من أجل فرض الاعتراف بالسلطان الموحِّدي[٣]. وبالنسبة إلىٰ صنهاجة المغرب، الذين سماهم البيذق بـ «**صنهاجة الشمس**»، فقد ثاروا مرارًا في الأعوام ١١٧٧ و١٢٠٤ و١٢٢١، وكانت أقواها ثورة عبد الرحمن الصنهاجي، الذي هزم حاكم سجلماسة، غير أن حركته فشلت وانتهت بصلبه واحتِزاز رأسه وبعثه إلىٰ مراكش[٤].

إلاّ أن كل هذه الحركات التي وصفناها بأنها صنهاجية ضد الموحدين، لم تكن تعني أن كل الصنهاجيين ثاروا؛ بل إن كثيرًا منهم تعاون مع الموحدين ووجدَ حيّزًا في مُلكِهم؛ فقد كان عمر الصنهاجي من العشرة الأوائل الذين بايعوا المهدي بن تومرت. وكان من حواريي المهدي العشرة السباقين إليه رجل صنهاجي يدعىٰ عمر بن علي، وكان معروفًا بعمر أصناك أو يملوك. وكان هنالك آخرون بارزون فيمن عرفوا بـ «الخمسين»، الذين كانوا أيضًا من رجال الحكم

---

(1) Roger Le Tourneau. *The Almohad Movement* , p. 56

(٢) أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنىٰ بالبيذق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، ١٩٧١، ص ٨٤.

(3) Le Tourneau, *The Almohad Movement*, p. 54

(4) Jaques-Meunié, *Le Maroc saharien: des origines à 1670*, Librairie Klincksieck, 1982, 262-263.

البارزين في عهد المهدي[١]. ولا شيء أدلّ علىٰ هذا من البيذق نفسه، لسان حال الموحِّدين المتعصِّب، الذي كان صنهاجيًا. وقد بقي صنهاجة الموحِّدين مناصرين لهم ليس فقط علىٰ مستوىٰ النبلاء، وإنما في أوساط شعبية ملحوظة حتىٰ في فترة الثورات الصنهاجية ضد الموحِّدين؛ فعندما ثار عليهم رجل يقال له بوسردون فإن الصنهاجيين قتلوه «وساقوا رأسه وبغله إلىٰ الأمير أبي يعقوب»[٢].

بل إن الثورات التي عددها البيذق لم تكن مقادة من قبل صنهاجيين دومًا. ولكن مع ذلك، لا يمكن إنكار الحضور المشهود فيها للصنهاجين، وخصوصًا الذين فقدوا مراكزهم بفعل انتصار الموحِّدين. ولقد بقي الصنهاجيون الأصليون في المغرب في ظل الموحِّدين في جنوب المغرب، وهم من عرفوا بـ «**صنهاجة القبلة**»، قاطنين جنوب مراكش في تمدُّدات قبلية كثيفة، ذكر منها البيذق أحد وأربعين فخذًا، كلها من صنهاجة السوس ووادي درعة، ولا يعرف منها اسم شبيه في الصحراء غير دادس أو إدادس[٣]. ولكن لعلّ الأغلب في الصنهاجيين المنهزمين من المغرب كان من صنهاجة الصحراء من لمتونة وحلفائهم الظرفيين من برغواطة ودكالة، الذين هاجمهم القائد الموحدي «حتىٰ انقادوا للطاعة وتبرؤوا من يحيىٰ الصحراوي ولمتونة»، بتعبير ابن خلدون[٤]. أما الصنهاجة المغاربة فقد بقوا عمومًا كما كانوا قبل مجيء المرابطين. وبالنسبة إلىٰ لمتونة الصحراويين فقد كانت سيوف بني غانية، ذوي الأصول الصحراوية، هي آخر السيوف المرابطية التي صلصلت في وجه الموحدين. وقد تم اختتام هذه الثورة الملحمية الصنهاجية ضد المصموديين بمشهد رمزي: المقاتلون ينهزمون، وقائد الثورة يموت جريحًا في مضرب بدوية في الصحراء الليبية-الجزائرية، والرجل الثاني في بني غانية يدخل البلاط الموحدي مستسلمًا ومُبايِعًا حيث يتم استقباله بحفاوة.

❁ ❁ ❁

(١) أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنىٰ بالبيذق، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١، ص ٣٠-٣٥، وص ٤١.

(٢) نفسه، ص ٨٥.

(٣) البيذق، المقتبس، ص ٥٣-٥٦.

(٤) ابن خلدون، ج٦ ص ٢٣٣.

لا شكّ أن الجنوب الصحراوي أخذ مدًا ذاتيًا وعاش تجربة سياسية مختلفة ومجهولة في كثير من نواحيها وتفاصيلها الدقيقة، ولم ينتظر أن يعود له المرابطون من المغرب ليحكموه. لقد نمت حركة أبي بكر بن عامر؛ إذ فرض شأنه علىٰ ما يليه من الصحراء، وتمكّن من إزاحة المجتمعات المستقلة الغامضة من الذين أشار إليهم الشيخ محمد المامي بالمسيحيين واليهود والبافور[١]. وهو النهج السلطوي الذي انتهجه لاحقوه، وبدأ الإسلام السني يدخل غانا في منتصف القرن الحادي عشر مزيحًا الإسلام الشيعي القادم من تادمَكّة، وتمّ توسيع مسجد غانا. ورغم أن السوق حُطِّمَ، إلا أن أوداغست استمرّت في الحياة من دون تدمير كما دلّت الحفريات، وذلك عكس ما ذهبت إليه بعض المصادر التاريخية[٢]. ورغم أن المؤرخين المعاصرين لم يذكروا قصة فتح غانا وتدميرها من قبل المرابطين، إلا أن أسطورة تدمير غانا من قِبل المسلمين توطّدت في الدراسات اللاحقة وربما نسجها الاستشراق الغربي، خصوصًا في العشرينيات من القرن التاسع عشر، وذلك من خلال تأويلات خاطئة كما بَيّنَ الدارسان بيكا ماسونن ومفري فيشر في بحث استقصائي مهم[٣].

وما يمكن فهمه من المصادر المتاحة هو أن تحالفًا وربما تجارة بين أرستقراطية الصحراء وأرستقراطية السودان كان معيار التحركات الكبرىٰ في جنوب الصحراء في القرنين الثاني عشر والثالث عشر؛ إذ تتحدّث بعض المصادر السودانية عن زواج لأبي بكر بن عمر في التكرور أثمرت منه أسرة من النبلاء تفرّعت منها إمارات الولوف وشمامة. وتذكر هذه المصادر أن زوجة أبي بكر كانت امرأة تكرورية هي فاطمة صال، وأنه أنجب منها ابنه أحمدو بوبكر، الذي عرفوه بـ «انجاجان انجاي» الذي ينتسب له الولوف في إمارتهم، المعروفة بالوالو.

---

(١) بن محنض، تاريخ موريتانيا القديم والوسيط، ص ١٤٠.

(2) Hrebkand J. Davisse. The Almoravids, 359-360.

(3) Pekka Masonen and Fisher, Humphrey J. (1996), "Not quite Venus from the waves: The Almoravid conquest of Ghana in the modern historiography of Western Africa", *History in Africa* 23: 197-232.

أما البنتان، يمكَية رقية وأرم بوبكر، فقد انتسب لهما ملوك شمامة (الوالو)[١]. ولم تكن علاقات أبي بكر بن عامر مع السودان بالضرورة زواج القاهر للمقهورين، بل إنه زوّج ابنته من عاهل المانديغ، كانجايا، بعد إسلامه علىٰ يديه، في إطار جهوده لأسلمة مملكة مالي[٢]. ولكن حضور قواته ظلّ أيضًا ملموسًا في السودان، حيث يقال إن مملكة دينينكوب السودانية قد استمدّت شرعيتها منه[٣]، وكانت هذه المملكة أساسًا مملكة قبائل الفولبة التي سيطرت علىٰ بلاد الولوف وبسط قائدها تنكَلا وابنه كولي نفوذهما علىٰ أقاليم مهمة من السنغال وغامبيا الحاليتين. ونجد قصصًا حول الأصول الصنهاجية للأرستقراطية السودانية حتىٰ في الجنوب الشرقي، حيث تحدث ليون الإفريقي عن الروايات التي تقول بانتماء ملوك لتمبكتو ومالي وأكدز للصنهاجيين[٤]. وفي داخل الصحراء أيضًا تعايش وامتزج البربر والسودان، فقد بقي بها نبلاء التكرور الذين أسلموا وانخرطوا في الحركة المرابطية كالقائد لابِي بن وَارْجَابي، الذي نجا من معركة **تابفريلا**، التي قتل فيها الأمير يحيىٰ بن إبراهيم. ويبدو أن هؤلاء التكرور عاشوا في ودان، حيث ربما دُفِنَ لابي بن وَارْجَابي. أما التامغونيون الذين عرفوا بـ «**كنتيلة**» في السنغال، فقد أخذوا مسارًا مختلفا في ودان، حيث تمّ امتصاصهم في البافور والهجرات العربية[٥]. ولكن العلاقات لم تكن علىٰ ما يرام مع كلّ القبائل الزنجية، فكانت الحرب سجالًا. وقد لقي أبو بكر بن عمر نفسه مصرعه في معركة ضد بعض الزنوج في موقع يدعىٰ «مقسم بوبكر» بتگانت[٦] في نوفمبر عام ١٠٨٧، حسب ابن أبي زرع.

في بقية الصحراء كان مصير أبناء عمر أقل مجدًا في الصحراء منه في جنوبها،

---

(١) المختار بن حامد، موسوعة موريتانيا: التاريخ السياسي، ص ٥٨-٥٩.

(٢) حماه الله ولد سالم، في: موسىٰ كمرا، ص ٣٦.

(٣) موسىٰ كمرا، ص ٧٦.

(٤) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٨٣، ج ١ ص ٣٨.

(5) H. T. Norris, "Sanhaja Scholars of Timbuctoo". *Bulletin of the School of Oriental and African Studies, 1967,* 30*: 635.*

(6) Ould Cheikh, *Nomadisme, Islam et Pouvoir politique*, Tome 1, 1985, p. 150.

فقد ذكر مؤرِّخ لمتوني هو محمد امبارك اللمتوني أن ابنه محمد خُلِعَ ثم خلفته سلسلة لا نعرف علاقتها به، ولكنها حكمت قرابة ١٣٠ عامًا خالية من المشاكل علىٰ السلطة؛ إذ حكم الخضير بن يوسف بعد عزل محمد بن أبي بكر مدة أربعين عامًا، ثم خلفه ابنه عتبة لمدة ستين عامًا، ثم خلفه بشار مدة ثلاثين عامًا، ثم لحقه ابنه «أنّة». ثم حكم رجل لمتوني يبدو أنه مختلف عن الانتساب الأبوي لهذه السلالة الحاكمة اسمه محمد البنبري، الذي شهد عصره انقسامات قوية[١]. بل إن الآثار الشفوية من القرن التاسع عشر تقول إنّ السوسو استطاعوا قهر الصنهاجيين وطردهم من السودان وردهم إلىٰ الصحراء[٢]. وهي عملية يبدو أنها ستأخذ سيرًا حثيثًا من قبل السونغاي والماندي حتىٰ إحكام النفوذ علىٰ تگانت وولاتة في القرن الرابع عشر.

وفي إطار ملك أبي بكر وخلفائه نمت الصحراء وتطوّرت، وخصوصًا في مراكزها الحضرية؛ إذ تدلُّ الحفريات أن مدينة أوداغست شهدت نموًا كبيرًا في هذه الفترة (١٠٠٠-١٢٠٠)، وتمكّن سكانها من بناء وحدات منزلية واسعة تتكوّن من أروقة وغرف وباحات. واستُجلِبَ إليها عمال متخصصون في تشييد الأبنية المستحدَثة فبنوها علىٰ الطراز المغربي، وإن ظلّت متباينة بينها؛ مما يدل علىٰ مثاقفة متعدِّدة المصادر وعلىٰ تفاوت طبقي قوي؛ كما زاد حضور البربر في وسط المدينة دليلًا علىٰ التواصل مع المغرب. ورغم أن الفروق المعيشية والتفاوت الطبقي والفئوي بين جوانب المدينة ظلّ مستمرًا، إلا أن اهتمام السكان بتربية المواشي زاد فأصبح في معظم المنازل باحات وحظائر مخصّصَة للقطعان من الإبل والغنم[٣].

وفيما يتعلق بشمال أوداغست في الصحراء وفي منطقة الواحات الآدرارية، فإن ازدهارا شبيهًا -وربما متصلًا- بلغ أزوكَي. كانت أزوكَي مدينة صغيرة عندما بُنيت في القرن العاشر في أيام السيطرة الصنهاجية لما قبل عهد المرابطين واستمرّت

---

(١) المختار ولد حامد، التاريخ السياسي، ص ٥٧.

(2) Lechatelier, 46.

(3) Augstine F. C. Holl, *West African Early Town: Archeology of Households in Urban Landscapes*. Mitchigan: Ann Arbor, 2006. P. 6-7.

قرنًا، غير أنها اضمحلّت فقام المرابطون بتفعيلها[١] عندما بناها أخ لأبي بكر بن عمر هو وانو بن عمر، أخو يحيىٰ وأبي بكر، وأصبحت معقلًا علميًا خصوصًا عندما استقرّ بها القاضي الإمام الحضرمي المرادي (توفي حوالي ١٠٩٦) وازدهرت بها المجالس العلمية التي ستنمو إلىٰ وحدات قبلية. وكان الإمام الحضرمي المُرادي، كما هو معروف، فقيهًا ومُفكِّرًا إسلاميًا، أبقىٰ أثرَه في تاريخ الأفكار الإسلامية من خلال كتاب «**الإشارة في أدب الإمارة**». وقد أشارَ إليه ابن بَشْكُوال، صاحب **الصِّلة**، بأنه «كان رجلًا نبيهًا عالِمًا بالفقه وإمامًا في أصول الدين، وله في ذلك تواليف حِسان مفيدة»[٢]. ويبدو أنه عمِل قاضيًا في أزوكَي، التي توفيّ بها، والتي عرفها ابن بَشْكُوال بـ «أركن»[٣]. ولكي يستمرّ هذا الازدهار بأزوكَي، فإنه ارتبط بعلاقات تجاريّة واقتصاديّة مع الشمال فاشتهرت المدينة بالمتاجرة في الدروع اللمطية التي كانت تعدُّ من جلود الغزلان اللمطية، وكانت تشتهر بقيمتها العالية بين العرب والبربر. وقد قدمت مجموعات مرابطية إلىٰ منطقة أوجفت الحالية، في آدرار، التي ربما كانت تجمعًا قرويًا شهد حياةً ناجعة قبل القرن الحادي عشر، وتشير قبور نبلاء هؤلاء المرابطين في المدينة إلىٰ أهميتها في القرن الثاني عشر، حسب الروايات الشفوية المتوارثة[٤].

وغير بعيد من هذا كان سكان الواحات من الحراطين الأوائل والمجموعات القديمة تنشط في الإنتاج الزراعي وفي التجارة، خصوصًا تجارة الملح حيث بدأت مناجم تغازة تلفت الأنظار، كما ازدهرت مناجم النحاس والفضة في

---

(١) نفسه، ص ٦-٧.

(٢) أبو القاسم ابن بَشكوال، الصِّلة في تاريخ أئمة الأندلس وعُلمائهم ومُحدِّثيهم وفُقهائهم وأُدبائهم، تحقيق بشار عواد معروف، تونس: دار الغرب الإسلامي، ٢٠١٠، ج٢ ص ٢٤٢-٢٤٣.

(٣) نفسه، ص ٢٤٣.

وعن الإمام الحضرمي وأثره في الصحراء، انظر البحث الرائد لعبد الودود ولد الشيخ عن «حيوات الإمام الحضرمي»:

Abdel Wedoud Ould Cheikh and Bernard Saison. Vie(s) et mort(s) de al-Imam al-Hadrami: "Auteur de la posterité saharienne du movement al Moravide (11e-17e s). Arabica, T. 34, Fasc. 1(Mars., 1987) p.p. 84-79. Brill., p. 52-53.

(٤) وثيقة المعهد الموريتاني للبحث العلمي، تحت رقم ٠٠٠١٣، بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٩٩١.

المنطقة الواقعة بين سجلماسة وإيكَيدي (الواقعة في الشمال الموريتاني، وليست إيكَيدي في جنوبه). وكانت هذه التجارة تستقطب كثيرًا من القبائل التي عاشت في ظل المرابطين كهسكورة ولمطة وجزولة ولمتونة[١]. بل إن صراعات المرابطين والموحِّدين الأولىٰ كانت للسيطرة علىٰ هذه المناجم في الشمال[٢]. وقد فرض الأخيرون إتاوات من الذهب والفضة علىٰ جميع المناجم في منطقة الجنوب وفي توات في الجزائر، التي احتاجت إلىٰ الذهب والفضة. وفرضوا إتاوات زراعية قاسية علىٰ السكان في المناطق التي سكنتها كثيرٌ من المجموعات التي هاجرت إلىٰ الصحراء في تلك الفترة[٣]، والتي ربما تكون قد هاجرت من تلمسان وتوات بسبب الوضعية المتقلقة هنالك لهذه الأسباب وغيرها. وهكذا كانت التحركات السكانيّة بين الشمال والجنوب تجوس الصحراء دائمًا، وتُسرِّعُ وتيرتَها عوامل الحرب والتجارة ورغبات الاستقلال والاستثراء والمغامرة والبحث عن الفرص.

(1) Norris. *The Arab Conquest of the Western Sahara*, Beirut: Longamm Librairie du Liban, 1986, P. 136.

(2) Hrebkand J. Davisse. The Almoravids, 363.

(٣) حوتية، ج ١ ص ٣٧-٣٨.